روايات الهلال

البحر أمامها

محمد جبريل

روايات الهلال

سلسلة شهرية لنشر القصص العربى والعالمى
تصدر عن مؤسسة دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة
عبد القادر شهيب

رئيس التحرير
عادل عبد الصمد

المستشار الفنى
محمد أبو طالب

المدير الفنى
محمود الشيخ

سكرتير التحرير
هالة زكى

الغلاف ورسومات داخلية
علية سيطى

الإصدار الأول
يناير ١٩٤٩

العدد ٧٣٠
أكتوبر ٢٠٠٩م
شوال ١٤٣٠هـ
تشرين أول ٦٧٣٦ق

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٠٠٠ ليرة - الأردن ٢٩٥٠ فلساً - الكويت ٢٥٠ فلس - السعودية ١٢ ريالاً - البحرين ١٫٢ دينار - قطر ١٢ ريالاً - الإمارات ١٢ درهماً - سلطنة عمان ١٫٢ ريال - اليمن ٤٠٠ ريال - المغرب ٤٠ درهماً - فلسطين ٥ دولار - سويسرا ٤ فرنكات - السودان ٥٠٠ جنيه

البريد الإلكترونى
darhilal@idsc.gov.eg

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوي (١٢ عدداً) ٦٠ جنيها مصريا داخل (ج.م.ع) تسدد مقدما نقداً أو بحوالة بريدية غير حكومية. البلاد العربية ٢٥ دولاراً. أمريكا وأوروبا وآسيا وأفريقيا ٥٠ دولاراً - باقي دول العالم ٦٠ دولاراً. القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفي لأمر مؤسسة دار الهلال.

Email: subscription_dept@...

الإدارة

القاهرة
١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقاً)
ت: ٢٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط).
المكاتبات:
ص.ب: ٦١ العتبة - القاهرة - الرقم البريدي ١١٥١١ - تلغرافيا المصور - القاهرة ج.م.ع.
تلكس
Telex 92703 hilal u n
فاكس
FAX: 3625469

البحر أمامها

محمد جبريل

إسم الرواية : البحر أمامها

تاليف :محمد جبريل

إشراف : محمود قاسم

الخطوط : محمد العيسوى

رقم الإيداع :١٧٨٣٥ / ٢٠٠٩

الترقيم الدولى :I . S . B . N 977-07-1374-0

إلـى جدتى أنيسـة حـبيب

التى تهب ـ رغـم الغياب ـ

ثمارهـا ، كشجـرة طيبـــة ـ

سألتنى أن أذكر لك الغريب ومحنته ،

وأصف لك الغربة وعجائبها .

وقد قيل :

الغريب من جفاه الحبيب

وأنا أقول :

بل الغريب من صار غريباً فى وطنه ،

وأبعد البعداء من كان غريباً فى محل قربه .

«أبوحيان التوحيدى»

لما دفعت ضلفتي النافذة ، لامست وجهها نسمة باردة ، امتصها الحر والرطوبة . نظرت إلى نصف الدائرة أمـامـهـا ، مـا بين بنايات السلسلة وقلعة قايتباى . الموج حصيرة ، أضافت إلى سكونه قوارب متناثرة ، لا تتحرك ، كأنها مغروسة فى المياه . صيادو السنارة تناثروا فوق المكعبات الأسمنتية الهائلة ، ينتظرون جذبة سناراتهم فى الماء ، ورجل يكنس الرصيف المقابل بمقشة مجدولة من ليف النخيل ، وثمة شاب وفتاة ، جلسا على المقعد الرخامى ، تعلوه المظلة الخشبية ، فى مواجهة البحر (المقعد نفسه الذى كانت تجلس هى ومحرم إليه) لف كل منهما ذراعه حول خصر الآخر ، واتجها بنظراتهما إلى الأفق .

هذا هو نهارها الأول فى الشقة . سبقته الليلة الأولى . شغلتها بترتيب ملابسها فى الدولاب ، وبإعادة تنظيم الأشياء بما يسهل عليها حرية الحركة والتصرف .

كان باسم آخر من غادروا الشقة .

أهملت الدموع فى عينيه ، وارتباكه . مد يده لمصافحتها ، فاجتذبته ، عانقته حتى أحست بأنفاسه فى بشرتها .

قال فى لهجة اعتذارية :

- ماما رحبت بإقامتك معنا .. لكنك ترفضين !

قال رامى :

- شقق هذه الأيام عشش ضيقة ..

وشرد فى الصمت كأنه يتدبر ما ينوى قوله :

ـ أنعى من الآن همَّ المكان الذى سنخصصه للمولود القادم .

أدركت أنه يلمح باستحالة أن تظل فى بيت ابنتها .

فوتت الملاحظة :

– هل اقتنعت هناء بمؤاخاة باسم ؟!

قالت هناء فى نبرة هامسة :

– رامى يتكلم عن أمنيته !

لم تكد تطمئن إلى الحياة فى بيت هناء ، حتى حدث الصدام الذى لم تتوقعه . ألفت الأماكن والأشياء والأوقات ، والاكتفاء بالإنصات الصامت لاختلاط الآراء والملاحظات والنداءات . تحولت حياتها ، فى الشقة الصغيرة .

إلى ما يشبه الصورة الثابتة :

الباب الخارجي ، الصالة ، الحجرتين المتجاورتين ، إحداهما لهناء ورامى، والثانية لباسم ولها ، صور الفنانين ولاعبى الكرة على جدران حجرة باسم ، نجفة الصالة المطفأة اللمبات ، نافذة المطبخ المطلة على المنور ، تكوينات النشع فى جدران الحمام، البلاطة المكسورة أسفل الطرقة ، حتى نسيج العنكبوت فى زاوية سقف المطبخ .

ترددت فى قبول عرض هناء أن تنتقل إلى بيتها . لم تتصور ابتعادها عن الشقة المطلة على البحر ، شرفتها ، نوافذها ، الصالة ، الحجرات الأربع .

قالت هناء :

– ستقيمين فى بيت ابنتك .

استطردت مهونة :

– أيام قليلة وتعودين .

حين سبقتها فاطمة إلى دخول الشقة ، ناوشها شعور هو أقرب إلى الغربة ، كأنه قد مضى سنوات على غيابها . تعودت على شقة هناء ،

لكن الشعور الذى ظل يتملكها أنها ضيفة ، ستعود - ذات يوم - إلى شقتها .

تأملت الصالة ، والحجرات ، وقطع الأثاث ، والموضع الذى كان يتطلع منه إلى أفق البحر .

اعتادت سفره فى مهمات خارج الإسكندرية ، يغيب أياماً ويعود . هذه المرة ، يؤلمها الشعور بالفقد . لن تهيئ نفسها - كما فى المرات السابقة - لانتظاره ، تشبع اطمئنانها بالمكالمات التليفونية ، تسأل عن مواعيد الطائرة، تعد الوجبات التى يحبها ، يصحبها رامى ، إلى مطار القاهرة ، أو مطار النزهة ..

رحيله هذه المرة بلا عودة ، هى لن تراه ثانية .

طلبت من جودة البواب أن يظل شراؤه للصحف كما هو قبل أن يغيب محرم ، تطيل قراءة الحوادث والتحقيقات والمواد التى كان يكتفى بتصفحها.

تردد على الشقة قارئ جامع على تمراز ، يتلو فى زوايا البيت - لطرد الشر - أيات من القرآن ، وأدعية .

أمضت اليوم فى وصل ما انقطع ، واستعادة الألفة .

قالت فى التليفون للصوت المنفعل :

- الشقة التى شهدت حياتنا هى وطننا !

قال باسم :

- أخشى أن تشعرى بالضيق أو الملل ..

- عندى التليفزيون والراديو .. والكلام فى التليفون نصف المشاهدة ..

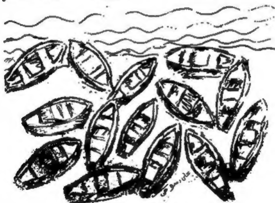
وهزت قبضتها فى تأكيد :

- سيكون خيراً !

نفضت الشقة ، تنظر إلى ما فيها بعينين غير ما كانت تنظر بهما . تكثفت فى داخلها مشاعر القلق والتوتر الصامت .

أدركت أن حياتها لن تعود إلى ما كانت عليه .





بعد أن أغلقت الباب خلف رامي ، اتجهت إلى هناء بنظرة متسائلة

– ألم تجدي في الإسكندرية أفضل منه ؟

– ما يعيبه ؟.. وظيفته محترمة ، ومستقبله مضمون .

حين عرضت هناء على أبيها أن يلتقي رامي ، أومأ برأسه موافقاً

كان قد تحول ، بحكايات هناء ، إلى فرد من الأسرة . باح لي رامي بسر خطير .. كتب رامي مذكرة مهمة .. رامي يذاكر الإنجليزية .. رامي بدأ مشروعاً لحسابه .. رامي حزين لضياع صفقة كانت في يده .

بدت زيارته متوقعة ، ربما لمجرد الزيارة .

حين لتقته نجوة للمرة الأولى ، شعرت بالنفور تجاهه .

قالت

- يضايقني الشاب الذي لا يمل الكلام عن نفسه !

ظل في نفسها ما زرعته هناء من توجس . كلماتها المعجبة بما سمته شطارة رامي . عمليات لا تفهمها ، وإن بدت غامضة ، وغير مفهومة . فتشت في ملامحه أو تصرفاته عن شيء لا تحبه .

عابت على محرم أنه لم يكلف نفسه عناء السؤال عن رامي : ما عمله في داخل الدائرة الجمركية ؟ هل يعمل في الحكومة ، أو في شركة أهلية ، أو أنه مغامر لحسابه الشخصي ؟

وفق محرم دون أن يسأل ، أو يناقش . قال : مبروك . وهو يعيد بطاقة رامي - مقلوبة - إليه .

لم يجد في طبيعة علاقة هناء ورامي ما يدعو إلى السؤال أو التشكك -
لم يناقش هناء حتى في تنازلها الغريب عن كل ما كانت أعدت له نفسها من
مستقبل دراساتها العليا . ظلت صامتة ، ومبتسمة ، لقول رامي
- هناء حصلت على بكالوريوس التجارة ، وهو يكفي لإدارة بيت !
قالت لهناء :
- رامي لا يريد زوجة ، إنما يريد جارية ..
أردفت لاتساع عينيها بالغضب :
- إنه يحب التملك ، بزواجكما صعك إلى ممتلكاته .
استطردت موضحة :
- ساعده استعدادك للخضوع .
- هذا رأيك .
لقبول بالتنازل بداية لا نهاية لها ..
تمنت لو أن هناء عرفته على حقيقته ، لكنها بدت كالمسافة ، هو الذي
يطلب ويأمر ، ويفرض سيطرته .
ما أضاف إلى استيائها أن طباع رامي كانت واضحة ، من قبل أن
يتقدم لخطبة هناء . ينهرها لأقل سبب ، ويشتمها بلا سبب . تنقل عنه ما
يضايقها من كلماته وتصرفاته ، لكنها لا تحاول التطلع إلى ما وراء الأفق .
احتدم الانفعال في عينيها بنظرة غاضبة
- أنت تكرهينه !
جمدت نجاة في مكانها
أنا أحبك .
إذن ، لا تثيري المشكلات في حياتي .
ورمقتها بنظرة رافضة
- هل أطلب الطلاق كي أريحك ؟!

حين قدمت إلى الإسكندرية من دمنهور لمرة الأولى ، لم تكن عيناها قد شاهدتا البحر . جلسا على كرسي مواجه لأفق الميناء الشرقية .

الوقت ليل . الجو يعبق برائحة خريفية . الظلمة غيبت أفق البحر ، لا نهاية ، لا مرئيات . القمر يريق ضوءه الشاحب على المكعبات الإسمنتية ، وعلى الموج الساكن إلا من مد يلامس ـ بالكاد ـ رمال الشاطئ ، وخطوات عسكري السواحل بطيئة ، متثاقلة ، ونظراته شاردة ، وبندقيته معلقة على كتفه .

يتر من وشيش الموج في تلاحق رتيب ، وثمة أضواء قليلة تنبعث من القوارب المتراقصة في مواضعها المتناثرة في نصف دائرة الميناء الشرقية .

أعمدة الإنارة تريق ضوءاً خافتاً على الطريق ، الناس أشباح التفوا في أردية داكنة . تبين الظلمة الشاحبة عن اللسان الطويل الممتد من أقصى اليمين إلى مدخل البوغاز . من بعد ، تتراءى الألعاب النارية والصواريخ وأصوات المفرقعات في تيرو السلسلة . من الخلف ، الدرجات العريضة المفضية إلى نصب الجندي المجهول ، يحيطها ـ بالرهبة ـ تداخل الألوان والظلال ، وثمة عمال ينقلون ربطات الصحف من عربة مكشوفة إلى الطولة الرخامية على باب قهوة الإسعاف ، وكناس ـ إلى جانب الرصيف ـ يزيح القمامة بالمقشة الهائلة .

أول ما حرص عليه ـ حين استقر في عمله بالمكتب الإقليمي لمنظمة الصحة العالمية ـ أن يستأجر شقة تطل على البحر ، الإسكندرية هي البحر

استأجر الشقة في العام الأول لتشييد البناية . اجتذبه واجهها المطلة على البحر بشرفاتها الواسعة ، ونوافذها العالية

كان صف البنايات المقابلة للبحر قد اكتمل بعد بناء الكورنيش ، ربما عشرة أعوام ، أو خمسة عشر عاماً . قدم مئات الأسر من داخل المدينة . بدل الكورنيش صورة الحياة ، شكل حاجزاً أمام اندفاع الأمواج .

تحرجت في داخلها - في الليلة الأولى لعودتها إلى البيت - مشاعر الفقد والحزن والوحدة والعزلة . غاب الزوج ، والصديق ، والظل الذي كانت تطمئن إليه . تمنت - رغم فارق السن بينهما - أن يكون يومها قبل يومه ، لكنه خذلها . رحل قبل أن تتدبر كيف تواجه الأيام المقبلة .

أحزنها الشعور أنها لم تعد من العالم حولها ، أو أن هدى ورامي يحرصان على إذكاء هذا الشعور في نفسها .

أحست أنها تعاني الوحدة أكثر من أي وقت مضى .

أمضت فاطمة الليل في بيتها ، تعيد ترتيب الأمور ، وتعود . برودة البحر القادمة من النافذة تدعو إلى إغلاقها . لكنها تعمدت أن تدفع الصفعين إلى نهايتهما . يؤنسها صوت ارتطام الأمواج بمصدات الشاطئ ، وأصوات الطريق ، وأضاءت الشقة كلها .

آخر يوم له في المنظمة ، صرف سائق السيارة . فضل أن يمضي إلى البيت على قدميه ، يساير طريق الكورنيش . علق جاكت البدلة الكتانية البيضاء بإبهامه المستند إلى كتفه ، واحتمى من حرارة الشمس بالبنايات الملاصقة في امتداد الطريق . يحرص على ارتداء البدلة الكاملة في كل الأوقات ، لا يفرق بين الليل والنهار ، ولا بين الشتاء والصيف . البدلة الكاملة شرط الأناقة التي يحرص عليها .

تشاغل بالتطلع إلى الأفق المتكسر ، والحرارة المتصاعدة فوق المياه بتموجات مرتعشة ، وطيران النورس في امتداد الساحل ، واختلاط زحام المارة والسيارات .

اعتذر عن عدم إقامة حفل عيد ميلاده ، إضاءة الشموع ، وتقطيع التورتة، والتغنى بعام جديد ، سعيد . ذلك اعتراف بأنه أحيل إلى المعاش ، وهو ما لم يحدث ، سيظل في عمله ، وإن استبدلت المطمة براتبه مكافأة شهرية .

تردد ـ في الأيام التالية ـ على قهوة فاروق ، على ناصية شارع محمد كريم . جالس أصدقاء قدامى ، وآخرين كان أول لقاءاتهم في القهوة



لها شعور من أطفأ النور ، وتهيأ للنوم .
قالت فاطمة
- في عمرى نحتاج إلى أدوية معويات .
قالت :
- الأدوية قد تخفف الآلام لكنها لا تطيل العمر .
أضافت دون تغير في ملامحها ، أو نبرة صوتها
- لعمر نهاية تأتي في موعدها !
عرفت من المسافة القصيرة - في موازاة الكورنيش - من ميدان المنشية إلى البيت المطل على يسار الميناء الشرقية ، أنها كانت تستطيع التوجه من بيت هناء إلى بيتها ، لم تكن تدرك قصر المسافة ، المرات القليلة التي تنقلت فيها بين البيت وأماكن في الإسكندرية ، صحبها محرم ، حرص ألا يتركها لنفسها ، حتى في نزولها للبيع والشراء من حلقة السمك ، وشارع الميدان القريب ، أو للتمشية على شاطئ البحر إلى قلعة قايتباى ، أو سراى رأس التين ، كان يحرص على مرافقتها .
رافقته - في أوقات متباعدة - لزيارة المكتبات وصالات الفن و لمتاحف ، والتردد على لمسارح والسيما والحفلات الموسيقية
آخر ما شاهدته تياترو المسيرى ، في الأرض الخلاء الملاصقة لمبنى المحكمة الوطنية ، تتابعت الأعيبات والرقصات وألعاب الحاوى والمهرج والفتاة الكهربائية ، وإن عالبت النوتر ، حتى عزف السلام الوطني

لضعف بصره - في الأعوام الأخيرة - أسقط تلك الزيارات من حياته حيتهما .

يستعد ما شاهده من حفلات الموسيقى والأوبرا ومعارض الفن ، عوالم من السحر ، كان حريصاً أن ترافقه إليها قد يتردد على العطارين ، يتنقل بين محال الكتب والتحف القديمة ، يكتفي - غالباً - بالتقليب والتأمل ، لطول تردده على العطارين ، صار يعتز بإجادة قراءته للوحات الفنية ، وبخبرته في اقتناء الأشياء الثمينة .

عمقت حكاياته من ميلها إلى البقاء في البيت . تمنت لو أنها رافقته في النزول إلى السوق ، الحياة على طبيعتها ، البيع والشراء و لفصال ، لا تقيد بالشروط ، ولا المعاني التي يغفلها الشحوب .

تعلمت منه الكثير ، وعرفت ما كان ينبغي أن تعرفه اطمأنت إلى أنه يعرف جيداً كيف تسير الأمور خارج البيت .

لما أبدت رغبة في حضور دروس إمام جامع على تمراز ، دلها محرم على الشوارع التي لا تنحرف عنها .

تمضي في طريق الكورنيش إلى شارع تميز ناصيته بالمقهى الكبير ، وارب أبوابه ، واكتفى الرواد بالجلوس داخله .

تميل في الشارع ، تتباطأ أمام قهوة فاروق ، تحاول - من حكايات محرم - تبين الموضع الذي يختار الجلوس فيه . تتأمل الأبواب ، والنوافذ لزجاجية العريضة ، والكراسي المتقابلة حول الطاولات الرخامية ، والتاج لمكي يعلو الواجهة ، و النصبة " المحملة بالغلاية ، والبرادات المعدنية ، وأكواب الماء والشاي ، والكنكات ، وصاجين القهوة ، والطقاطيق الصغيرة ذات الأرجل الثلاثة ، والرواد المتناثرين ، والنداءات ، والمناقشات ، وبخار الدرجيلات يضفي ضبابية على القاعة الواسعة .

ابتسم لملاحظتها إن كان يتعاطى الشيشة . قال إن الكلام هو صلته بجلساء القهوة ، لا يضيف إليه سوى شرب القهوة ، لا نرجيلة ، ولا ألعاب كوتشينة ، أو طاولة ، أو دومينو يأخذ في الكلام ويعطى ، آفاق الحوار ممتدة .

تعبر قضبان الترام وسط شارع محمد كريم ، تواصل السير حتى تصل إلى مفارق وتقاطعات .

يطالعها الجامع في موضعه المطل على ميدان صغير ، تتفرع منه شوارع متجاورة ، ومتقابلة ، لا تعرف إلى أين تمضى

تصعد الدرجات الرخامية إلى صحن الجامع ، تصلى في الركن ، إلى جانب الباب المغلق ـ ركعتي تحية الجامع ، تقرئ ولى الله السلام ، وتتلو الفاتحة ، تدور حول المقام ذى الكسوة الخضراء ، والأعمدة النحاسية ، وشفتاها تتمتمان بتلاوات وأدعية

تندس في نصف حلقة النسوة حول الإمام ، تستمع إلى دروسه ، ربما شاركت بسؤال أو ملاحظة . تعود ـ بعد انتهاء الدرس ـ من الطريق نفسه .

سألت عن الصلاة هل يلزمها تقدم العمر بزيادة عدد الركعات ؟ هل تضيف إلى صوم الاثنين يوم الخميس ؟

قال الإمام

ـ العبادة مستحبة في كل الأوقات .

قبل أن تصحب هناء ورامي إلى شقتهما المطلة على شارع خفي ، اطمأنت إلى إضاءة حجرات الشقة . حتى الأبليكات والأباجورات في أركان الغرف ، أضاءتها ، تعرف أن روح الميت تظل في المكان أربعين يوماً ، تكفي الجسد ظلمة القبر . حرصت أن تظل ثيابه على حالها داخل الدولاب ، رفضت حتى أن تستجيب لإلحاح هناء ، فتعطى ربطات العنق إلى رامي .

تركت متعلقاته الشخصية في موضعها فوق الكومودينو ساعة اليد والنظارة الطبية وشرائط الدواء والنوتة الصغيرة والقلم .

سيطر عليها شعور بأنها وحيدة في الدنيا .

لم يعد يربطها بالعالم من حولها سوى الذكريات ، صورة محرم تملأ عينيها ، فلا ترى غيره ، تشعر - رغم فوات زمن الإضاءة - أنها تتنفس الهواء الذي كان يتنفسه ، تتشمم رائحة عرقه ، في ملابسه المعلقة داخل الدولاب ، تستعيد ملامحه ونبرات صوته وإيماءاته وتصرفاته ، في جلستهما الليلية - المتباعدة - على المقعد الرخامي المواجه للكورنيش ، وقفته وراء النافذة المطلة على البحر ، جلسته وهو يقرأ ، وأمام التليفزيون ، انحناءة رأسه وهو يحتسي الشاي ، إدارته مؤشر الراديو يبحث عن أخبار البي بي سي ، أو مباريات كرة القدم في إذاعة الشباب والرياضة .

ربما أعادت تقليب ألبومات الصور ، أو قراءة رسائلها إليه من دمنهور محرم يرتدي الروب الجامعي .. محرم يضع السلسلة الذهبية في عنق نجاة .. محرم - في صورة جماعية وسط موظفي مكتب منظمة الصحة العالمية .. محرم ونجاة يقفان أمام باب مسجد المرسي أبو العباس .. هناء الطفلة تبني بيتاً من رمال البحر .. هناء ترتدي الكعب العالي بفرحة المرة الأولى ، هناء ورامي بملابس الزفاف .. باسم يدلي ساقيه من فوق كتفي محرم ، باسم يبتسم للعدسة في وقفته على رمال البحر وبيده دلو وجاروف ، أفق البحر - خلف بسم - في اعتلائه الكورنيش الحجري ، حبيبتي نجاة ، احرصي على زيارة أمي .. تسلمي منها رسائلي إليك .. عزيزي محرم بك .. حبيبي محرم ، شوقي إليك بطول المسافة من دمنهور إلى الإسكندرية .. أشكرك على هديتك الغالية .. ننتظر قدومك في إجازة المولد النبوي .. حبي أكبر من البحار والمحيطات .. يصر أبي أن يتأجل زواجنا إلى ما بعد بلوغي

الخامسة عشرة .. أقسم لك بمقام سيدى أبو الريش أنى أكتب هذه الرسائل ، لا أمليها على أحد ..
علا حاجبا رامى الكثيفان بالدهشة
- هل كان مسموحاً بالمصارحة فى زمانكم ؟!
قالت :
- رسائل بنت فى الخامسة عشرة من عمرها .
وتهدج صوتها بالارتباك :
- لكى أبلغ سن الزواج ، قام الطبيب بتسنينى !
انتفضت متنبهة ، اتسعت عيناها بالذعر
- هذه الرسائل ؟
فى لهجة مدافعة
- يبدو أنك نسيتها على المكتب .
- كانت داخل صندوق .
لما أخذت الرسائل من الدرج الأيسر العلوى فى مكتب محرم ، اطمأنت إلى موضعها داخل الصندوق الخشبى ، المطعم بالصدف . استدلتها بما كان فى داخل الصندوق من الحلى . فى اليوم الثالث لعقد قرانهما ، عاد إلى الإسكندرية . لم تنقطع رسائلها إليه ، ولا رسائله إليها . تكلمه فى تفصيلات حياتها اليومية ، ويكلمها عن أحوال الوظيفة ربما استعادا ما كان ، وناقشا تصورات .
أظهر رامى التأسف :
- لم أعرف أن قراءتها تضايقك .
اهتز جسدها بالانفعال
- ما فعلته سخف ، النبش فى ما لا يخصك سخف !

أعادت - بعيني رامي - قراءة الرسائل المودعة في الصندوق الخشبي الصغير . هل عرف ما لم يكن ينبغي أن يعرفه ؟

أطالت تأمل كلمات محرم " يؤلمني تذكير أبيك لي بفارق السن بيني وبينك " .. " العينان الساحرتان بوصلة طريقي إلى حارة الزرقا . أحترق الشوارع في الإسكندرية ودمنهور ، تجتذبني البوصلة التي كأنها ثبتت في داخلي ، لا يشغلني فارق السن بقدر ما يشغلني السؤال هل تبادليني مشاعري ؟ " .. "حين أعلنت أمي رغبتها في عدم ترك بيتنا بحارة الزرقا ، لم أكلمها عن الرغبة نفسها في داخلي . بدت أسرتك مطمئنة إلى العيش في بيت العائلة . كنت حريصاً أن أظل بالقرب منك " .

شاهدت الإسكندرية في أوقات رفقتها لمحرم ، قارنت بين ما شاهدته ، وما رسمه خيالها مما كان أبوها يرويه عقب زياراته إلى المدينة .

لم يكن يشغلها التقدم في العمر ، ولا النهاية التي ستلتقي بها في لحظة ما . رعها الإحساس الذي سيطر على محرم - في أيامه الأخيرة - بدنو حياته من نهايتها ، وأن الموت يقف على الباب ، أو أنه يلاحقه كظله . استقر في داخلها ما يشبه اليقين أنه سيعيش عمراً أطول من عمرها . كانت زياراته للأطباء متباعدة ، ولم يكن في تصرفاته ولا حالته الصحية ما يشي بالقلق .

نضح صوته بالأسى :

- أنا مستشار في منظمة الصحة العالمية ، لكنني أحتاج إلى من أستشيره في صحتي .

واغتصب ابتسامة .

- عندما أذهب لا تتأخري في اللحاق بي .

وأغمض عينيه .

- سأفتقدك !

وضعت أصابعها على شفتيه

- لا تتكلم عن الفقد ، ستظل حيا حتى تزوج أبناء باسم !

راودتها رغبة في أن تمسد شعره ، أو تربت كتفه ، أو تحيطه بساعديها، تتصرف بما يشعره أنها تحبه .

الوجه قمحي مستطيل . العينان ساجيتان ، مطمئنتان ، وإن لاحظت تراخي جفنيه ، وتضخم أنفه الشفتان دقيقتان ، رقيقتان ، يميزه بروز خفيف في أسنانه .

مال جسده - بتقدم السن - إلى الامتلاء والترهل ، وحركته إلي البطء ، ومال طبعه إلى الهدوء . لا يشارك في مناقشات هناء ورامي . إذ تكلم اكتفى بكلمات مقتضبة .

يرتدي - في الشتاء - بيجامة من الصوف ، فوقها روب ، ويضع على رأسه طاقية من القماش نفسه ' يكتفي - في الصيف - بجلباب قصير الكمين. إفطاره الدائم شرائح الخبز والجبن والقهوة وعصير البرتقال .

ربما أسند ظهره إلى كرسي ، واستغرق في قراءة كتاب على ضوء الأباجورة ، وثمة موسيقى هادئة تتناهى من موضع قريب . يحرص على سماع الموسيقى العربية ، وإن أحب أم كلثوم وعبد الوهاب والأطرش وليلى مراد ومحمد فوزي وعبد الحليم وشهرزاد ، والألحان الشرقية والشعبية (يجد في سيد درويش أهم الموسيقيين الجدد) والمواويل والتواشيح والابتهالات .

اطمأنت إلى تنقله المتباطئ بين الحجرات ، ونظراته المتلفتة ، يبدو مشغولاً بما لا تعرفه .

فاجأها بالقول :

- كيف يحدث الموت ؟
وهي تغالب التوتر :
- لم أتعرف إليه ، وإن تصورت أنه نفس يدخل ولا يخرج . هذا كل شيء!
همس كأنه يسأل نفسه :
- المشكلة أن الإنسان يموت وحده .. لا أحد يشاركه موته !
ورنا إليها بنظرة حزينة
- هل ينتهي كل شيء بالفعل ؟
- هذا ما أظنه ، مجرد نوم بلا صحو .
أضافت في صوت مشروخ
- الميت لا يخشى شيئاً ، لأنه ميت !
وشوحت بيدها :
- لم أعد أخاف الموت .. اعتدت صداقته .
- مهما صادق الإنسان فكرة الموت ، لا يستطيع تصور أنه سيموت !
وغلب على نظراته شرود :
- مع ذلك ، فإن الموت حل للكثير من المشكلات !

أرهقتهما فكرة أن يترك محرم البيت ، تظل وحدها ، تعاني العزلة ، والمخاوف ، والموت . لا تتصور أنهما يفترقان ، فلا تراه ، تحيا ما بقي من لعمر ، وحيدة ، بين جدران الشقة .

لاحظت في نفسها ميلاً إلى كتم آرائها ، وتردداً بين اتخاذ القرار وتنفيذه ، كمن تنتظر نصيحة محرم ، وما يجب عليها فعله . فطنت إلى أنها تفتقد القدرة على التصرف في المشكلات التي تواجهها ، وأنها لا تملك أن تصل إلى رأى تدافع عنه ، لا تملك شجاعة اتخاذ القرار ، تسأل ، وتناقش الملاحظات ، يطول تقليبها لها ، تتردد في اتخاذ قرار ما ، حتى تنسى ما كان يشغلها .

ي، بدت المشكلات قريبة، تتوقعها في كل وقت.

تلاحظ ما يعانيه، ما يكتمه في نفسه، ولا يبوح به، يغمض عينيه، يقلص ملامحه، ويضغط على شفتيه بأسنانه. تعرف أنه يعاني مرضاً، وإن حاول إخفاء آلامه، يتكلم عن النتيجة دون أن يشير إلى بواعثها.

- ما بك ؟

- لا شيء !

ويظل صامتاً.

عرفت - بعد رحيله - أنه كان يحمل سر الموت في داخله. لم يحاول أن يشرك الطبيب في التعرف إليه. هو الموت، وما يسري في داخله نذره. عليه أن يتحمل، ويظل صامتاً. لم يحاول حتى أن يبدّل شيئاً في مألوف حياته. قرأ - لا يذكر أين - أن الطبيب قد يخفف الألم عن المريض، لكنه لا يقوى على دفع الموت.

عرفت أنه لم يكن يشغله إلا التوقع. لا يرتبط بالوظيفة، ولا السياسة، ولا الحياة خارج البيت، ولا حتى مباريات كرة القدم التي يحبها. رحيله، ومواجهتها ما لم يعدها لتوقعه.

تتشاغل بتأمل الصالة الواسعة. تتوسطها - أمام المدخل - مائدة الطعام غطيت بمفرش من الحرير الملون، وتوسطتها زهرية تدلت منها وردة ظلت في موضعها حتى ذبلت. تتقابل حولها ستة كراسي من الخشب المطعم بالصدف. الجدار الأيسر الواصل بين باب الشقة والطرقة المفضية إليها ملأه منظر طبيعي باتساع المساحة، لقرص الشمس الأحمر يغطس في أفق البحر. إذا أهملت إغلاق باب الشقة، صفقه الهواء القادم - عبر النافذة - من البحر. المطبخ والحمام في الناحية اليسرى، إلى جانبهما نافذة

صغيرة تطل على المنور ، وسط الصالة - البوفيه الضخم بين الصالة وحجرة المكتب - إلى اليمين - يتوسطه تمثال - اقتناه محرم من تونس - لرجل عار ، إلا من فوطة تغطي ما تحت السرة ، جلس على مقعد لحمام الشعبي ، إلى الجانب جهاز تليفزيون ، تعلوه - على الجدار - صورة فوتوغرافية لوالد محرم ، يرتدي بالطو قصيراً ، فوق قفطان ينسدل إلى القدمين ، ويرتدي حذاء أحلسيه . تدلت من السقف العالي شكمجية من المعدن الأصفر المنقوش بزخارف نباتية . افترشت الأرض سجادة فارسية ، تناثرت في الأركان مناضد خشبية صغيرة ، فوقها فازات خزفية ، بداخلها ورود جافة . حجرة النوم قبالة حجرة المكتب ، تلاصقها حجرة هناء - وحجرة القعاد الصغيرة - تحولت إلى ما يشبه الكرار - لها نافذة صغيرة يهبها الهواء والضوء ، مساحة فراغ صغيرة بين البيت والبيت المجاور .

كان يجلس إلى مائدة الطعام ، أمامه ملفات وأوراق ، يخلو - معظم وقته في البيت - لمراجعة أوراق العمل ، أو لقراءة الصحف والكتب ، يجري - بالقلم الرصاص - تحت الكلمات التي تستوقفه .

يفضل الكتابة والقراءة على المائدة ، والتطلع - من موضعه - إلى أفق البحر . كتفى في حجرة المكتب برص الكتب على الأرفف ، وفوق المكتب ذي الطراز العتيق ، لا يتردد عليها إلا ليودع ملفات أو كتباً ، ويأخذ أخرى .

تكتفي بمراقبته .

قد يعيد رواية حادثة ، أو خبر سياسي ، أو فقرة من تعليق ، أو يلخص كتاباً أعجبه . يكلمها عن أشياء لم تعرفها من قبل : في التاريخ والسياسة والبلاد وكرة القدم ، يعلق على قراءاته ، ومشاهداته ، وما يستمع إليه .

يشاركها أفكاره . ربما ذكر إحصاءات مما تتناوله منظمة الصحة العالمية في تقاريرها ، تهز رأسها دلالة المتابعة ، أو تسأل ، أو تستوضح ما غمض منها .

تبدى تأثرها لكثرة الأمراض ، وارتفاع أرقام الإحصاءات والبيانات ، وتفشى الأوبئة في البلدان الفقيرة .

تتناثر في كلماته مفردات السجائر ، الصرف الصحى ، المياه الملوثة ، المخدرات ، العادم ، النفايات ، مخلفات المصانع ، المبيدات الحشرية ، الأمراض المتوطنة . تأتى المفردات في سياق أحاديثه ، تحدد ما يشغله .

أشد ما يعتز به ، أنه - أول إقامته في البيت - دعم مكتب منظمة الصحة العالمية إلى طلب تحويل مواسير المجارى ، فلا تقذف ما بها في الميناء الشرقية .

قال في لهجة معتزة

- كنت سأفعل الشيء نفسه لو لم أسكن أمام البحر !

ربما انشغل بالقراءة ، وكتابة التقارير ، بينما انكبت هي على أشغال الإبرة - أجادتا - لطول العشرة - أن يتصل كل منهما بالآخر دون كلمات . تتخلل الجلسة الصامتة ملاحظات سريعة ، يعود كل منهما - بعدها - إلى ما بين يديه .

إن عانت أرقاً ، أشار عليها بسحب كتاب - يذكر عنوانه - من أرفف مكتبته

- ستجدين فيه ما يستحق القراءة .

اختلط في مشاعرها الخوف والقلق والإشفاق والتعاطف و المشاركة ، وهو يعانى زحام الوقت في انشغاله بتفشى وباء الحمى القلاعية

بدا مهموماً بما لم تعهده من قبل ، يقضي معظم النهار في المكتب ، يطيل الاتصالات التليفونية بمدن داخل مصر وخارجها ، يسجل الملاحظات ، يكتب المذكرات والتقارير ، يحدثها ـ بعبارات مقتضبة ـ عن خطورة المرض ، وعن الآثار التي يمكن أن يحدثها لو لم يتم تداركه .

عاد إلى جلسته المتجهة ناحية الأفق .

عرفت أن ما كان يشغله لم يعد كذلك .

قالت :

– هل انتهى الأمر ؟

قال :

– ما جرى فصل من الصراع بين مربي الماشية ومربي الدواجن .

ثم وهو ينقر بالقلم على زجاج المائدة

– انتصر مربو الدواجن هذه المرة ، لكن التنبؤ صعب بمن يفوز في الجولة القادمة !

ارتفع حاجباها بالاستغراب :

ـ هل كان المرض ..

قاطعها :

ـ هناك مرض .. لكنه لم يبلغ حد الوباء . تكفلت الشائعات بتضخيم الأمور ..

بَعُد زمن تردده الدائم على المكتب الإقليمي لمنظمة الصحة العالمية بمحطة الرمل . وظيفة المستشار الإداري قصرت علاقته على الأوراق ، يراجعها ، ويبدي الرأي ، يصحو وينام بلا موعد . يرافق شرب القهوة بقراءة الصحف . تتابع تنقل عينيه بين عناوين الصفحة الأولى

والصفحات الداخلية ، يتوقف أمام صفحة الوفيات ، يطيل وقت القراءة بحل الكلمات المتقاطعة ، ما يصله من الفرع يراجعه ، ويؤشر ، ويبدى الملاحظات ، حتى يزهق ، أو يدركه التعب . قد يستعيد مشواره الأسبوعي ، القديم ، إلى دمنهور .

يخرج من مكتب المنظمة بعد الظهر ، يخترق ميدان محطة الرمل إلى شارع صفية زغلول ، يتناول طعاماً خفيفاً فى إيليت ، ثم يمضى إلى محطة السكة الحديد . يهبط فى محطة دمنهور قبل أن يحل المساء.

لا يذكر متى فطن إلى وجودها فى حياته ، اللحظة التى استعاد فيها النظرة إلى وقفتها وراء النافذة الجسد الفائر ، البشرة البيضاء ، العينين اللوزيتين ، الواسعتين ، هالة الشعر الأسود ، الناعم ، حول وجهها .

تكررت لقاءاتهما ـ بالأعين ـ من خلف النافذتين .

لم يخف أبوها غضبه

ـ هل أحرجها ـ وأنا المفتش بوزارة المعارف العمومية ـ من المدرسة لتتزوج ؟ هل أزوجها من رجل فى عمرى ؟!.

خشى أن يكون فارق السن حافة ، تبتلعه هاويتها إن حاول القفز فيها ، لا يكون مجرد عقبة ، يحاول تخطيها .

روى عن تحريضه لأمه ، كى تعبر الحارة إلى البيت المقابل . تجالس أم نجاة ، تخوضان فى أحاديث لا آفاق لها ، وإن أومأت أمه بكلمات محسوبة إلى خطوة يترقبها .

كاد ـ فى لحظة ـ أن يرجئ الفكرة ، يتريث فى أمر زواجه من أية فتاة ، وليست نجاة وحدها .

قالت

– نسيت بحملي في هناء شرط أبي أن أواصل الدراسة .

يعبر ميدان المحطة إلى شارع الصعة . يخف وراءه قهوة المسيري وجامع الرواي والشوارع المتقاطعة و لمتوارية

خطواته أقرب إلى الهرولة ، كأن قدميه تعرفان طريقهما يجتذبه إلى بجاة جمال طبيعي ، بلا صنعة . يترك فول العاصي عن يمينه ، إلى داخل حارة الرقا الترسية الصيقة ، يرافقه الأمل في عودة لرحل عن رفضه .

يحاذر البرك لطينية المتبقية من مياه العسيس ، ويكتم تنفسه عن رائحة بقايا الطبيخ والسمك والبرار وروث البهائم .

البيتان المتقابلان يتشابهان في الطوابق الثلاثة ، و لنوافذ ، والباب الخشبي فوق درجتين من الإسمنت .

يرقى السلم الحالى من الدرابزين .

يلتفت - بتلقائية - إلى الحوش في أسفل . تغيب نظرته في الظلمة لشفيفة . يختار موضعاً بعيداً عن النافذة المواجهة ، المفتوحة ، فلا تعصب أمه إن عرفت زيارته لبيت الجير ن قبل أن تراه .

تباعدت - بوفاة أمه - زياراته ، زياراتهما ، إلى دمنهور ، يحرصان على لعودة إلي الإسكندرية في نهار ليوم نفسه .

ربما تمشّى داخل الشقة دلبيجاما والشبشب ، مال إلى الانحناء ، خطواته بطيئة ، تبين عن صعوبة قدرته على لسير تكررت شكواه من أن قدميه لا تساعدانه ، ومن ضعف الذاكرة ، وكثرة لنسيان ، وعدم ستجابة قواه ، وانهزامه أمام التقدم في السن . يشكو من لهجان لأقل مجهود

(الرطوبة ترد من إحساسه بالإرهاق) ، يتملكه الضعف فلا يستطيع النهوض ، يسند ركبتيه إلى راحتى يده ، حتى يفرد طوله . قد يطيل التوقف فى مكانه ، حتى يستعيد تماسك جسده من تأثير دوخة تفاجئه . تجذبه نجاة من يده ، أو يستند إلى الجدار ، أو قطع الأثاث يعبر ن طريق الكورنيش لتمشية إلى أول السلسلة ، أو من ناحية المقابلة إلى قلعة قايتباى وسراى رأس التين .

يجلسان على المقعد الرخامى فى مواجهة البيت . يختاران هذا المقعد من بين المقاعد الرخامية الأخرى على طول طريق الكورنيش . جلسا عليه ليلة قدومها - للمرة الأولى من دمنهور .

صار المقعد مكاناً لجلستهما الليلية - فى أوقات متباعدة - أشهر الصيف. يطيل التوقف ، تتوزع نظراته بين الاتجاهين ، حتى يطمئن إلى هدوء حركة المرور تماماً ، أو توقفها ، فيعبر .

أحبت البحر منذ رأته للمرة الأولى ، احتضنتها زرقة السماء ، المتداخلة فى أفق المياه ، وتكسرات الأمواج ، والقوارب المتناثرة ، وأسراب الطير .

تناهت آهة تألم وهى مستلقية فوق السرير . كانت تقرأ كتاباً ، سحبته - بالمصادفة - من مكتبة محرم . التليفزيون فى ركن الحجرة يبث فقرات إعلانية ، ونور الأباجورة المثبتة على حامل يختلط بضوء النهار المنسحب .

تجمدت - بالذهول - لرؤية تقلص ملامحه ، و تساع عينيه وفمه ، واصطباغ بشرته بحمرة داكنة ، ويده تحيط بعنقه كأنه يخنق نفسه .

قاومت ارتباكها وهى تنظر إلى عينيه المفتوحتين ، هل تغمضهما ؟

أدركت أنها لابد أن تفعل ذلك .

مدت أصابعها بجرأة ، لا تدرى كيف واتتها .



التقطت نظرة باسم بارتجافة يدها الممدودة بكوب الشاى .

– ملأت الكوب . أخشى أن يندلق على الأرض !

وهو يحدق فى عينيها

– هل أنت مريضة ؟

قالت :

– لا تجعل من الحبة قبة !

افترشت وجهه بسمة إشفاق :

– نحن لا نستطيع أن نهرب من هذا العالم .. علينا أن نتعايش معه .. ما أعرفه أن حالتك النفسية تنعكس على تصرفاتنا .. مهما تضخمت المشكلة فهناك أمل . المشكلات التى يصعب حلها ، علينا أن نتركها للظروف .. لا مخلوقات بضمن طهارتها سوى الملائكة .. ما دمنا نحيا ، فلابد أن نواصل حياتنا .. لا شيء يظل على حاله ..

ظلت تصغى لتعبيراته السريعة ، المتلاحقة ، المفعمة بالتشبيهات والكنايات ، المعانى التى لم تخطر فى بالها ، ما لم تتصور أنه يجيد حفظها، أو تسعفه البديهة متلاحقها .

قلبت الكلمات فى رأسها ، تأملتها . هو باسم آخر تتعرف إليه ـ ربما ـ للمرة الأولى ، يختلف عن باسم الذى كانت تروى له الحواديت ، يطالبها أن تظل إلى جانبه حتى ينام .

شعرت أنه قريب منها ، كما لم يحدث من قبل .

تميز عن أبويه بأسنانه المفلوجة ، وإن ورث عن أمه عينيها العسليتين لواسعتين ، وشعرها الأسود الغزير ، وشفتيها المكتنزتين ، وورث عن أبيه أنفه الضخم ، وقامته الطويلة ، وكتفيه العريضتين ، وبشرته الأقرب إلى السمرة .

اكتفت بنظرة متأملة ، ثم قالت في نبرة هادئة

ـ أعرف هذا .

كيف لإنسان مات من كان يشاركه حياته ، أن يواصل ـ بمفرده ـ هذه لحياة ؟

كتمت تأثرها لقول رامي ـ أنت تخافين الإقامة في الشقة بمفردك ، وتخافين النزول من البيت ، وتخافين التعامل مع الناس حتى الشعور بالحاجة إلى شخص يرعانا هو شعور بالخوف !

لا تذكر المناسبة التي كان فيها باب الشقة مفتوحاً ، وهي تهم بإغلاقه ، اصطدمت نظرتها بعيني الجار في الشقة الملاصقة .

ارتبكت لإيماءته المحيية ، هل تردها إليه ؟

حدثها محرم عن جلساتهما إلى طاولة واحدة في قهوة فاروق ، جوار الباب المطل على شارع محمد كريم .

قل نزول محرم بعد المعاش ، ثم لزم البيت .

ظلت على ارتباكها وحيرتها ، حتى أومأ الجار مستأذناً ، وأغلق الباب وراءه .

الشعور الثقيل بالوحدة ، لم يدفعها إلى الاختلاط . تملكتها الحيرة ، لا تدرى ماذا تصنع بنفسها . لم تبدأ التحية ، ولا تأملت ، أو أطالت النظر . اكتفت بالنظرات العابرة والحيادية .

تلتقى بالجيران ، أو من يقصدونهم ، فى صعودهم ، ونزولهم ، على السلم الرخامى . قد تتعرف إلى الملامح ، لكنها لا تعرف إن كان الشخص من سكان العمارة ، أم من الطارئين عليها ؟

ترد على لتحية بكلمات مدغمة ، أو بهزة رأس .

تبينت أنها لم تعد تستطيع إقامة علاقة تذيب شعورها بالوحدة . طالت العشرة ، فلم تتصور أن حياتها تخلو من محرم . يغيب الانتظار والشوق والقلق واللهفة والراحة والفهم والامتنان والاطمئنان والاستغراق والمؤانسة والبوح والهمس بالسر والأسئلة والإيماءات المتواطئة والحب والمداعبة والفرحة وتقاسم اللقمة والمشاهدة والنظر إلى أفق البحر .

حين عرضت أن تصحبه إلى السوق ، احتواها بنظرة مشفقة

- لن ينقصك شيء ، كل ما تحتاجينه سأحضره بنفسي ، أو أكلف أحد السعاة .

وأشار بيده ناحية النافذة .

– زحام الإسكندرية يختلف عن هدوء دمنهور !

قالت لفاطمة :

– أراد محرم أن يريحنى ، فحدث العكس !

قالت فاطمة :

– حب الأستاذ محرم لك مضرب الأمثال .

وهى تغمض عينيها

– لو أنه ساعدنى على التعرف إلى الدنيا خارج البيت !

لا تذكر المناسبة ، لكنها أصرت على العودة إلى دمنهور .

اتجه إليها بنظرة مشفقة

- لا بأس من عودتك ، لكن هل تعرفين الطريق ؟

غلبها الارتباك .

الدنيا خارج البيت تبدو غامضة . ما لم تكن في صحبة محرم ، يصعب عليها السير والفرجة والتأمل .

في دهشة :

- توصلني إلى بيت أبي ، أو إلى محطة الأوتوبيس .

اتسعت الابتسامة المشفقة ، فملأت وجهه

- هل أترك جزءاً من نفسي ينفصل عنها ؟

فهمت لمعنى ، حركت شفتيها كمن تعد نفسها للكلام ، لكنها ظلت صامتة .

وضعت ما لم يطلبه الفرع من أوراقه في المكتبة ، وأغلقت عليها . ستة أرفف من خشب الزان ، مغلقة ، بعرض متر وارتفاع يقرب من المترين . عنى محرم بصف الكتب في داخلها بما يسهّل البحث عن الكتاب الذي يريده. قصرت جلوسها على الصالة ، ونومها على حجرة هناء - هذا هو الاسم الذي اعتادت أن تسميها به - تركت لفاطمة تنظيف حجرة النوم ، وترتيبها ، تغلقها فلا يدخلها أحد .

تبينت خلو حياتها من الأصدقاء . زملاء محرم في العمل يزورونه برفقة زوجات ، محرم هو الذي يعرف عناوين البيوت ، ويسجل أرقام التليفونات . يكرر اعتذاره بأن انشغاله في المكتب والبيت لا يتيح له حياة اجتماعية صحيحة .

لم يترك في حياتها صداقات حميمة ، ولا أماكن كثيرة تستعيدها الذاكرة. كلمها - في اليوم الثاني - عن اختلاف الظروف بين دمنهور والإسكندرية

وعدها أن يأتي لها بما تريده ، أو تتادي على جودة البواب ، فهذا عمله .
- حملت في العام الأول لزواجها . انشغلت بما في بطنها ، ومهناه بعد الولادة ، تناست ما وعدها به محرم أن يتيح لها الحصول على التوجيهية أو الثقافة العامة .
- تغلق عليها باب الشقة ، لا تزور ولا تزار . فاطمة - وحدها - تتردد على الشقة مرة كل أسبوع ، تغسل الثياب ، وتساعدها في ترتيب البيت .
- يمضها إحساس أن الناس - حتى القريبين منها - ليسوا بحاجة إليها . تسلم نفسها إلى شرود ، لا تتابع أحاديث هناء ورامي عن بوالص التصدير والاستيراد وأذونات التخليص وأسعار العملات وفوائد البنوك وشهادات الاستثمار والمضاربات وشركات توظيف الأموال وضريبة المبيعات والإكراميات وغلاء أسعار الشقق .
تتنبه إلى أنها تسير في الشقة ، بلا سبب ، ولا اتجاه تمضي إليه .
ربما تبينت أنها ظلت في جلستها المطلة على البحر ، صامتة ، لا تفكر في شيء محدد . قد تخترع جزءاً تعيش فيها ، تأنس إلى مخلوقاتها ، يترامى - في جلستها وراء النافذة - صوت تكسر الأمواج على المصدات الأسمنتية ، وصرخات النوارس في امتداد الشاطئ . لا يبين سوى أفق البحر ، وضوء الشمس ما بين طلوع الصبح إلى المغيب ، وتناثر النجوم حول القمر في ظلمة السماء ، وومضات الفنار الدائرية ، المتوالية ، إلى ما وراء البنايات العالية ، وما بعد الأفق .
لا تذكر إن كانت قد لاحظت - قبل أن تعيش الوحدة - تصاعد الأصوات من نافذة الطابق الثاني ، ضحكات نسائية وأغنيات وشتائم
قالت فاطمة لنظرة الاستياء في عينيها

- الشقة يستأجرها الآن معروشة ناس من الخليج .

أضافت إنه لم يعد من مستأجرى الشقة سوى أصغر الأبناء ، هو الآن فى حوالى الخامسة والخمسين ، تقاعد بمعاش مبكر ، وانتقل إلى الإبر هيمية مع ابنته التى لم تنجب من زوجها . سكان الشقة الأولى فى لطابق الأول أسرة قبطية ، مات الزوج ، تقضى الزوجة شيخوختها مع ابنتهـ وزوجها وحفيدين فى المرحلة الثانوية . سكان الشقة الثانية فى الطابق نفسه ، أبوان وثلاثة أبناء يعملون فى مشروع تجارى ، يتنقلون له بين الإسكندرية ومدن أخرى فى مصر وخارج البلاد . الطابق الثانى يتجاور فيه أسرتان تاجر فى شارع الميدان ورث عن أبيه الشقة والتجارة ، وضابط شرطة فى مصلحة الجوازات والجنسية ، استأجر الشقة بعد أن هجرها من تبقى من السكان . الجار فى الشقة المجاورة زوّج أبناءه ويقيم مع زوجته المريضة بالقلب ، لا تغادر الشقة إلا للطبيب . الشقة الفوقية أغلقها سكانها على الفراغ ، بعد أن تناقصوا بالموت ، وبالسفر الشقة الأخيرة ـ أمام سلم السطح ـ ذات مساحة أصغر ، جعلها صاحب البيت مكتباً يحتفظ فيه بأوراق وكالته بشارع فرنسا

ولونت فاطمة صوتها :

- جيرانك ناس طيبون !

لم يعد فى حياتها ما يثير الأسئلة ، لا شيء يستلفت تأملها ، راوغها اختلاط الأشياء بما يصعب تفسيره . غابت الفوارق بين ما هو حقيقى ، وما تسلل إلى حياتها .

تمنت الموت وهى نائمة ، تنام فلا تصحو . رافقها التوقع ـ وهى تسلم جسدها ـ كل مساء ـ إلى الفراش ، أن تستيقظ فلا تجد نفسها ، تجدها ميتة !

تعالى رنين التليفون ، فتنبهت إلى وجوده . كانت قد نسيته تماماً . كاد استعماله يقتصر على محرم ، يدير القرص ، ويتلقى المكالمات .

لاحظت ارتعاشة في يدها ، وهي تدني السماعة من أذنها

- من ؟

قالت لنفسها : باسم .

توقعت أن يكون هو ، تقاسمه الفراش منذ طفولته . يطلب منها أن تظل إلى جواره ، تروي له الحكايات : السندباد البحري ، والشاطر حسن ، وست الحسن والجمال ، والسفيرة عزيزة ، وكان يا ما كان ، في سالف العصر والأوان .. يا ست يا ستنا ، ياللي قصرك أعلى من قصرنا ، ما عندكيش عنقود عنب ، العليل اللي عندنا .. مال سامت كبرت كده ليه يا جدتي ؟ ، عشان أكلك بيهم .. يا بير يا بير ، ادبهم صراصير كتير .. الساعة دقت اتناشر ، لازم أرجع البيت .. افتح يا سمسم .. دي سكة السلامة ، ودي سكة الندامة ، ودي سكة اللي يروح ولا يرجعش .. سلّو طلبنا ما فيش عارب يعيش .. عاشوا في تبات ونبات ، وخلفوا صبيان وبنات .. حكايات تستعيدها ، يستعيدها ، تضيف ، وتحذف ، بما تلمحه في عينيه من أمارات الإعجاب أو الخوف .

تعرف من صوت تنفسه الهادئ أنه قد استغرق في النوم . تنزل من السرير بجانب جسدها وهي تحاذر أن تصدر صوتاً . يصحو فينادي عليها، تحضه على تناول الطعام : الأولاد في سنك لابد أن يأكلوا جيداً .

الأشهر السبعة الأخيرة قاسمته فيها حجرته ، فعمقت علاقتهما . لم تعد تتصور الحياة بدونه . تدرك أن هذا هو تصوره . هو أقربهم إليها ، تأخذ منه وتعطي له ، يصارحها بما يكتمه عن هناء ورامي .

أهملت تحذيرات رامي بأن تمنعه من النوم إلى جانبها

- أنت تفسدينه بهذا التدليل !

أهملت تحذيراته بألا تعطى باسم من النقود ما قد لا يحتاج إليه ، تحرضه على الإنفاق غير المحسوب .

قالت لهناء

- أتمنى أختاً لباسم .

قالت هناء

- رامى يرفض حتى تتحسن ظروفنا .

قالت مهونة :

- الطفل يولد ورزقه معه .

- كنت تعترضين على رامى ؟!

دون أن يجاوز صوتها نبرته الهادئة

- ولازلت !

فى أول أيام باسم بكلية الهندسة ، قال له رامى

- إن أنهيت الدراسة بتقدير ممتاز .. سألزم الكلية بتعيينك معيداً .

بداية الطريق هى التى شغلته ، وليست النهاية . واجه دنياه الجديدة بالتوجس والدهشة والقلق والاكتشاف والخوف .

أعطته نجاة أذنها ، ينقل لها أحداث كل يوم : المبنى ذو الأعمدة الهائلة ، والدرجات الرخامية ، المدرجات المزدحمة بالطلاب ، المعامل ، المعدات الضخمة ، الكافيتريا ، تبادل قراءة الصحف ، المناقشات السياسية ، الصداقات الجديدة .

احتضنته بنظرة دافئة

- أهم شيء أن تتفوق فى دراستك . هذا ما يريده أبوك .

وهو يهز شعيته المرتجفتين :

– بابا يريد ما يحبه لي ، لا ما أحبه أنا لنفسي .

وتنهد

– بابا يريدني في قالب هو نفسه لا يعرف شكله !

– أبوك لا يريد إلا نجاحك .

غلف باسم صوته بجدية :

– تأتين أو آتي إليك ؟

أعدت كلاماً ، ثم أغلقته ، عن إحساس الضيفة بعيداً عن البيت ، تستأذن لتصرفاتها ، تحتفظ برأيها فيما يثار من أسئلة ، تبتعد إذا مال رامي وهناء إلى الهمس ، تدرك أنهما يتكلمان فيما لا يريدان أن يطلعاها عليه ، تلزم حجرة باسم ، لا تسأل عما تشاهده ، أو تقرأه ، تتنازل عن المواعيد التي ألفتها في تناول الطعام ، تهمل ميلها إلى الوجبات الساخنة ، الخضار المطبوخ وقطع اللحم والأرز . تعرف أنه يدّخر لصفقة جديدة ، فهو يقصر معظم الوجبات على التونة المعلبة وشرائح البطاطس والسلاطة الخضراء . ربما كان ذلك في وجبتين متتاليتين . لم تكن تحب نوعية الطعام، وإن لم ترفض ، ولا أظهرت ما يشي بالاعتراض .

وهي تتعمد أن يسم التهلل صوتها

– مذاكرتك أفضل !



تأكدت من موضع الحقيبة القماش بين ساقيها . خشيت أن تروح في النوم ، فلا تجد الحقيبة إلى جانبها .

لم تتصور أن ملاحظتها حول تأخر باسم في العودة إلى البيت ستؤذي علاقتها بهناء . تنتهي بها إلى الطوس وحيدة على كرسي في حديقة المنشية. إلى اليمين شارع محمد كريم ، وقضبان الترام ، ونصب الجندي المجهول ، تقابله فيلا جميلة كأنها قصر (عرفت ـ من فاطمة ـ أنها القنصلية الفرنسية) ، محاطة بسور من الياسمين وقضبان الحديد المدببة . ومن الناحية الأخرى مبنى المحكمة الذي ترى واجهته الخلفية من نافذة الشقة . ومن بعد ، طريق الكورنيش ، والأضواء المتناثرة في ظلمة البحر . إلى اليسار تمتد الحديقة إلى ميدان محمد علي ، والشوارع التي تعرف ملامحها، وإن كانت لا تعرف أسماءها . الدكاكين ـ في المواجهة ـ ينفذ الصمت والأضواء الخافتة من انفراجات أبوابها المواربة .

ثنت نظرة عفوية إلى ظل المبنى الزجاجي المصمت خلفها ، وحركة المرور القليلة في الشارع الموازي للحديقة .

آلمتها شتمة رامي لباسم .

قالت :

– باسم لم يعد صغيراً ، من حقنا أن نحاسبه . لكن الإهانة غير مقبولة!

صرخت هناء

- هذا ليس شأنك !

تركزت مشاعرها في نظرة عينيها ، محملتين بالحزن والألم

- أنا جدته ..

- وأنا أمه !

وأشارت بيدها ، كي تظل صامتة

- تكررين نصائحك ، كأنك واعظة .

واختلج صوتها بنبرة غضب :

- عودناه ألا يعطي أذنه لغير أمه وأبيه !

تقلصت شفتا نحاة في مغالبة للألم

- تعاملينني كضيفة .

رفعت إصبعها في وجهها :

- أنت أمي .. لكنك ضيفة على أسرتي ..

حدجتها بنظرة متأملة نزعت السواد [لم تتصور - منذ وفاة محرم - أنها ستخلع السواد] ، ترتدي بنطلوناً من الجينز وبلوزة حريرية بيضاء ، واسعة الكمين ، تناثر فيها الكثير من الدوائر السوداء الصغيرة .

هل الملامح - كما قال محرم - هي الأقرب إلى ملامحها الشعر الذي صنع هالة سوداء حول وجهها ، يعمق بياض البشرة ، العينان العسليتان ، الشفتان المكتنزتان . هل هذه هي ، أم أنها اكتسبت من رامي ملامح لا تفطن إليها ؟

شعرت بالفوضى في داخل ذهنها ، تمنعها من التفكير على نحو صحيح أرادت أن تتكلم . عاقت تعثر الكلمات على شفتيها ، أو أن المعاني تلاشت من ذهنها . أدركت أن رامي أقام جداراً غير مرئي بينها وبين هناء .

زفرت :

- ربما من الأفضل أن أعود إلى بيتي !

- هذا شأنك !

عكست ملامح رامي عدم رضائه عن حدّة هناء ، وإن اكتفى بكلمات مشفقة من أن تترك البيت في منتصف الليل .

يصعب عليها التخلص من الإحساس بأن رامي هو من يجب إلقاء اللوم عليه . كر السنين لم يقربه منها ، ظل بعيداً عن نفسها .

تثيرها التنازلات القاسية ، والتي لا مبرر لها ، من هناء ، مقابلاً لحرص رامي على امتلاكها . تعرف أن ابنتها قالت ما أراد زوجها أن يقوله ، للصباح لما يقوله : لأن هذا هو ما يريده . تنفذ أوامره دون أن تفهم المعنى تماماً ، تلتقط إيماءاته ونظراته وتلويحات يده . تكره تدخلها في حياتها . ولا تناقش سيطرة رامي بما يصعّب عليها مجرد التفكير .

هو لا يحبها ، وهي تبادله الشعور نفسه .

حتى نظرتها إلى ظهره ، كانت تنعكس فيها روحه العدائية . يحرص أن يشد قامته ، كأنه يتحدى ، أو يتهيأ للعراك .

غاظها التصرف :

ـ لم تعد صغيراً ، قد ترفع السدادة بأسنانك فتفقدها !

وهو يغتصب ابتسامة

ـ كل تصرفاتي لا تعجبك !

يغيظها ارتداؤه ملابسه الداخلية ، والسير حافياً ـ في البيت ـ أشهر الصيف . تدقيقه في الطعام الذي يطلبه . لم يكن محرم يلبه بما يقدم إليه ، يأكل ما تضعه على المائدة . تعيب على رامي احتساء الشوربة كأنه

يمتصها، إهمال اسكاب الطعام على بيجامته ، تجشؤه المفاجئ دون أن يدارى فمه . قد يجمع - بأطراف أصابعه - ما تناثر على المائدة من بقايا الطعام ، ويقذفها إلى فمه .

يتحسس بطنه براحته :

صار لى كرش ، يجب أن تقلل هناء من الأكلات الدسمة .

يعلو صوتها بالاستياء :

حتى فى الشراهة تلقى اللوم على هناء !

يكتفى بنظرة محايدة ، ويعود إلى ما بين يديه . كأن الأمر لا يعنيه

تعرف أنه كون ثروة من تجارة السوق السوداء ، وبيع العملات ، وغسل الأموال . يشترى من صانع فخار بالمتراس قطعاً يعلمها بالرسوم والنقوش الملونة ، وبالرمل المثبت بالصمغ ، يبيعها لبحارة الأجانب والسياح كأوان وتماثيل فرعونية وبطلمية .

يثق أن الفوز فى الحياة لا يحتاج إلى قراءات ، ولا إلى شهادات عليا ، وإنما إلى الفهم والشطارة ، والحصول على كل ما تستطيعه دون خسارة ، لا أقل القليل . يحرص أن يحسب كل شيء بدقة ، بالأرقام والتواريخ والأسماء والأماكن . الأرقام - وحدها - هى ما يعنيه ، ما يشغله ، لا شيء فى حياته إلا الأرقام ، الجمع والطرح والقسمة والضرب والزيادة والنقص .

ألزمها مقاسمته دفع مصاريف الدروس الخصوصية لباسم ، وإيجار الشقة ، وفواتير المياه والكهرباء والتليفون .

وهو يعلو برأسه

- أرفض أن أكون موظفاً ينفذ التعليمات !

ثم وهو يحك ذقنه بأظافره

– أرفض الفرجة بينما الآخرون يستأثرون بكل شيء !

يتكلم عن القواعد الجديدة التي تحكم العلاقات بين الناس ، اختفت الجيرة والصداقة والمودة حل بدلاً منها انتهاز الفرص ، والحصول على ما قد يكون حقاً للآخرين . ازدحمت الغابة بحيوانات لم تشهدها من قبل ، شراستها تفوق الوصف . إذا أردت العيش فلابد أن تكون أسداً . الحب يجوز بين ذكر وأنثى ، رجل وامرأة ، لكنه صعب في المعاملات التجارية . التجارة منافسة وخصومة ، حتى بين شركاء العمل الواحد . لا بأس بالحب في الأغنيات والأفلام ، لكن التجارة تقوم على الحرب وحدها ، زماننا الحالي يحتاج إلى قراءات متعمقة في القوانين ، وفهم لأصول التعامل ، والتصدير والاستيراد وتخليص الصفقات ، والمناقصات ، والمشروعات ، وأذونات الصرف ، وقروض البنوك . لم يعد العمل في الميناء بمنطق خذ حق الحكومة ، وأعطني حقي خذ ما ليس من حقك ، وأعطني ما أطلب حتى لو يكن من حقي . مصر كلها – الآن – سوق حرة . لا مجال للحياة فيها إلا للشطار ، من يعرفون قيمة المال ، ويبرعون في استثماره .

قالت

– أنا أحب الطرق المستقيمة .

قلب شفته السفلى متظاهراً بالحيرة

– ماذا نفعل إذا كانت كل الطرق ملتوية ؟

نطق وجهها بالاستياء ، وإن حافظت على هدوئها

– لا توهمني أن الخطأ هو المتاح الوحيد

– لا أتحدث عن صواب أو خطأ ، وإنما عن كيفية مواجهة الظروف .

أعادت النظر إليه ، كأنها تراه للمرة الأولى أقرب إلى الامتلاء ، قامته

طويلة ، لون بشرته مائل إلى السمرة ، جبهته عالية ، عيناه تعانيان جحوظاً واضحاً ، أنفه كثمرة كمثرى صغيرة ، شفتاه ممتلئتان ، يميل إلى المقاطعة ، حتى من قبل أن يستكمل محدثه إبداء وجهة نظره ، يجيد سرقة الحديث ، ويقصره على نفسه . يلجأ إلى يديه وتعبيرات وجهه ، لكي يحدث التأثير الذي يريده . يكثر من القسم بالطلاق ، وألفاظ السباب ، لا يفسر سلوكه ، ولا يعتذر عنه . يروي النكتة ، ويضحك عليها ، دون أن ينتظر رد الفعل . إذا ضحك اهتز جسده كله ، يذكرها بقرد .

كانت هيئة مجرم تملي عليه تصرفاته السابقة ، وكلماته التي تتدبر المعاني جيداً ، ومراعاة العيش في بيت ليس بيته .

حين أمسك ورقة وقلماً ، وعرض أن يحسب لها الفرق بين معاش زوجها والمعاش الذي تحصل عليه ، ربتت ركبته

ـ ما أتقاضاه يكفي ويزيد !

لم يكن لديها ما تتكلم فيه . تفضل الصمت ، يحاول فتح مغاليق صمتها ، يبدي ملاحظة فيما لا شأن له به ، أو يطلق نكتة ، يضحك قبل أن يتدبر وقعها ، مجرد أن يستفز عزلتها ، تكتفي بإيماءة ، أو بابتسامة متكلفة . إن تكلم يتجه بعينيه إلى الناحية المقابلة ، ينثر بين عباراته كلمات بالإنجليزية يعرف أنها لا تفهمها ، مجرد حرص على الاختلاف . يخلط في كلماته بين المزاح والغمز واللمز والاستهزاء ، وربما قال العبارة ، ثم مال على عشاء يكلمها دون انفعال من أي نوع ، كأنه لم يقل شيئاً .

قال لها صباح أول أيام العيد :

ـ إن شاء الله تكونين معنا في العيد القادم .

حدجته بنظرة مستغربة .

– أين سأكون ما لم أكن هنا ؟!

داري ارتباكه بتفادي نظراتها .

– الأعمار بيد الله !

بدت المسافة بينهما متسعة بما لا يمكن وصله .

لم تعد تشعر بالراحة في وجوده ، تغيظها تصرفاته ، وملاحظاته ، ولميزاته ، وكلماته المستفزة ، تستخفه . فيظل على هدوئه ، لا يبدي لقولها تأثراً على أي نحو . يداخلها توقع بأنه يمكن أن يقول أي شيء ، ويتصرف على أي نحو .

ربما واصل الكلام دون أن يلحظ ما إذا كانت تصغي إليه . تكسو وجهها جهامة تصده عنها ، استطاعت ـ بصمتها ، وردودها المقتضبة على ما يوجهه إليها من أسئلة ـ أن توصل إليه إحساساً بعدم رغبتها في الكلام . تمر الساعات دون أن يتبادلا كلمة ، كلماتها تتجه إلى هباء ، أو باسم . تكررها مفرداته . التائية .

فاجأها بالقول

– ألا تفتقدين حضن حماي ؟!

لابستها قشعريرة في طول عمودها الفقري ، لم تكن تجيد إخفاء مشاعرها ، تحتفظ بهدوئها ، لكن الملامح تبين عما تحاول إخفاءه . شعرت أنها لا تطيق أن تسمعه ، هو شخص لا يحتمل .

قرب أصابع يده ـ مضمومة ـ من شفتيه المزمومتين

– ألا تشتاقين لقبلاته ؟!

وتناول السكين يقشر ثمرة المانجو

- موت الرجل أحال حماتي إلى المعاش في عزّها !

وهي تغالب انفعالها :

- لا تتحدث بهذه اللهجة في وجود باسم .

غالب توتره ببسمة سخرية :

- باسم رجل ، عليه أن يعرف لغة الرجال !

أطالت التفكير في معنى الكلمات : هل هي عفوية أو مقصودة ؟

حرصت على العزلة والانطواء ، فهي تلزم حجرتها معظم الوقت ، لا تغادرها إلا للمشاركة في تناول الطعام ، ولا تكلمه إلا رداً على سؤال ، تصع في نظراتها إصرارها على المسافة التي تضعها بينها وبينه ، تعيد تفسير كلماته وإيماءاته في معان لم تخطر لها من قبل ، ولا توقعت أن تشغلها ، تجيب عن أسئلته بكلمات قليلة ، تعطي المعنى ، ولا تتكلم لا بعد أن يبدأ هو الكلام ، يسأل ، أو يبدي ملاحظة ، أو يروي ما يهمه أن يرويه ، ربما اكتفت بنعم أو لا ، تتجه بنظراتها إلى الناحية المقابلة .

علا صوت هناء بالغضب ، لأنها سجلت توكيلاً لعبد الرحيم الساعي بفرع مطعمة الصحة ، فيتسلم معاشها من البنك

- قمت هذا حتى لا أعرف حقي في ميراث أبي .

اصطبغ وجهها بحمرة

- ميراث ؟!

- ما تركه أبي غير المعاش .

أحست أن شيئاً يتفتت في داخلها

- لم أحصل على مليم خارج إعلام الوراثة .

وأودعت نظرتها تأثراً :

- إلى متى تكونين صوت رامي ؟

عاتت على هناء أنها تظل صامتة أمام كل ما يقوله رامي ، وكل ما يفعله، تنصت لما يقـوله ، وتلبي كل مـا يطلب ، لا تسـأل ، ولا تناقش ، ولا تبـدي ملاحظة ، لا تحاول حتى أن تسأله عن معنى الكلمة ، أو التصرف . كأنها انجذبت إليه تماماً ، ذابت فيه ، كأنها دمية يجيد تحريكها بخيوط غير مرئيـة، حتى الآراء التي تؤمن بها هناء ، أو توافق عليـها ، مـا تلبث أن تبتلعها، توافق ، بالصمت .

على مـا يصـدر عنه من آراء وتصـرفـات ، لا تعلق ، ولا تناقش . تضع راحة يدها على ظهر اليد الأخرى ، وتخفض رأسها ، كأن الأمر لا يشغلها ، أو أن رامي ألزمها الصمت . تطل من عينيها نظرة استكانة ، لا تواجه ، ولا تحدق ، تكاد لا ترتفع عن الأرض .

- أنا لم أكن أعترض على ما يقرره أبوك ، لكنني كنت أناقشه .

مالت هناء إلى تقليده . كانت تشاركها شاي الصباح ، لا تطلبه ثانية في اليـوم كله ، هي الآن تشـارك رامي شـرب الشـاي والنسكافيـه ، وتدخين السـجاير أيضاً . أظهرت دهشتها وغضبها ، فشاحت هناء بيدها في لا مبالاة .

اعتادت تردد هناء على البيت ، تدفع حقيبتها الجلدية أمامها ، فتعرف أن رامي أغضبها ، وأنها تعود بثيابها .

أبدى ملاحظة على أداء على الحجار لأغنية " صلينا الفجر فين " ..

قالت في لهجة مداعبة :

- أغنيات على الحجار لا تناقش !

ورددت :

صلينا الفجر فين .. صلينا فى الحسين

علا صوته بالانفعال

- تسخفيني من أجل مطرب ؟!

ضربت نجاة على صدرها :

- تعودين بحقيبتك لهذا السبب ؟!

كانت هناء تكتفى برواية بواعث [illegible] أمها ، تعيد نجاة ما سمعته على محرم ، يعفى ابنته من الأسئلة [illegible] عليها من مجرد التصور أنه يعرف أسباب عودتها إلى البيت .

مرة وحيدة ، اكتفت نجاة بالغضب في داخلها . كتمت ما روته هناء عن تحسس رامي جسدها وهي نائمة [illegible]ثار لارتدائها ملابسها الداخلية . هي إذن تكرهه ، وترفض مضاجعته ، هي ليست المرأة التي أراد الارتباط بها . أغوى الأسر رشحتني لبناتها ، لكنني اخترتك أنت ، تزوجت المرأة الخطأ ، وها أنا ذا أدفع ثمن غفلتي .

رفضت أن تعيد ما قالته هناء . لم تتخيل كيف يتقبل محرم سماعه .

همست بتمازج الدهشة والحيرة :

- هل يجب على الزوجة أن تتعرى وهي نائمة ؟

قالت هناء وهي تخفض رأسها :

- لم يطلب ذلك من قبل !

تقلصت ملامحها بالامتعاض :

- سبب لتوجيه اللوم !

حين أبدى رامي ضيقه من ترحيب أبيها بعودتها ، واجهه محرم بالاستياء .

– أنت أحضتها من هذا البيت ، إذا حدث ما يؤلمها فهي تعود إليه !

يضيف إلى استيائه ما يعرفه من هناء أنها لا تضع في حقيبتها - حقيبة واحدة - إلا ما يوافق عليه رامي ، هو الذي يحدد ما ينبغي ، وما لا ينبغي ، أن تحمله في عودتها إلى البيت ، كأنه يملك كل شيء ، ولا تملك هي شيئاً .

البطاقة الصغيرة ، الملصقة على الجدار ، فوق مكتب هناء ، ألفت رؤيتها سنوات " هناء محرم ، دكتوراه في إدارة الأعمال من جامعة بوسطن بالولايات المتحدة " .

– منحت لنفسك درجة الدكتوراه .. هل حاولت الحصول عليها ؟

اهتمت بمظهرها في الجلوس داخل الحديقة ، وجهها الخالي من المساحيق ، المحاط بإيشارب يغطي شعر الرأس ، والتايير الأسود المسدل إلى قدميها .

هي لن تثير الريبة ، ولا الرغبة في المضايقة .

– الوقت متأخر .

تأملته من تحت عينيها . الضوء الساقط من أعلى أظهر ملامحه . في حوالي الستين ، يميزه شعر منكوش ، وحاجبان كثيفان اختلط فيهما السواد بالبياض ، وأنف مفلطح ، وشفتان متورمتان . يرتدي بدلة صيفية ، وصندلاً أطلت منه أصابع متسخة .

تملكتها حيرة ، لا تدري كيف تتصرف ؟ ماذا تقول ؟

ألم يلحظ التفافها بالسواد ؟!

هز راحتيه في الفراغ

– نحن في إبريل .. الخماسين صعب ..

استطرد في نبرة متواطئة

– هواء الليل لطيف .. يغرينا بترك البيوت .

هزت رأسها بما لا يهب معنى محدداً .

مط شفته السفلى :

– الربيع !

ثم هز رأسه نافياً :

– مصر لا تعرف الربيع ولا الخريف ، جوها شتاء وصيف .

وأشار بيده ناحية البحر :

– الربيع هناك فصل الحب .

أومأ إلى شابين ، التصقا تحت ظل شجرة هائلة الأغصان

– سنموت ونصير عدماً .. لماذا لا نستمتع بحياتنا القصيرة ؟

رمقته بنظرة مستغربة · هل يتصور استجابتها لكلماته الملحة ؟ هل تبدو مهيأة لعلاقة جسدية ، أو حتى عاطفية ؟

غالبت التوتر فى صوتها :

– ما بقى من العمر أولى أن نقضيه فى العبادة .

ولونت نبراتها :

– للشباب ظروفه ، ولنا نحن ظروفنا .

بدلت جلستها ، اتجهت بنظرها ناحية ميدان محمد على .

أدرك معنى الكلمات ، والتصرف ، مضى بعيداً .

قامت من جلستها فى بدايات النهار ، حرضتها رؤية صاحب الكشك على ناصية شارع محمد كريم وميدان المنشية ، تأكد من وضع جهاز التليفون إلى جانب الواجهة الزجاجية ، وسط الصحف وعلب السجاير والشيكولاتة والمناديل الورقية .

استعادت الرقم فى ذاكرتها ، أعدت نفسها لتكراره ، بحذف وإضافة ، حتى يرد الصوت الذى تطلبه .

هتفت بمفاجأة كلمة آل المغموسة فى النوم ·

– فاطمة !

– ست نجاة ؟

اغتصبت ابتسامة .

– تذكرتني ؟

هي فاطمة التي تعرفها ، وإن بدت القامة - في العباءة السوداء الواسعة - أقرب إلى الامتلاء . التقاطيع المتناسقة ، البشرة الخمرية . العينان السوداوان الباسمتان ، يعلوهما حاجبان رفيعان . بدت في جانب فمها سنة ذهبية ، وفوق خدها الأيسر شامة بنية صغيرة . وأحاطت معصمها بثعبان من الذهب المضفور . عصبت رأسها بمنديل أسود ، زين طرفه بحواشي مطرزة . دست قدميها في حذاء خفيف من الكاوتش .

حين أثقلها حمل هناء ، أقامت فاطمة في الشقة . قامت بأعمال البيت ، وشاركت في رعاية هناء ، حتى تقدم لخطبتها موظف بإدارة الأرشيف بالمكتب الإقليمي لمنظمة الصحة العالمية ، رشحه لها محرم . تباعدت زياراتها إلى البيت ، ثم اقتصرت على مكالمات التليفون .

قالت :

– لم أفعل ما يستحق قضاء الليل في الطريق ..

استطردت فاطمة في لهجة مداعبة :

– في الحديقة .

أضافت مهونة :

– ما حدث اختبار لقوة إيماننا

وهى تغالب تأثرها :

– اختبار صعب !

تحرك فى داخلها ما طال احتباسه . غطت وجهها بالمنديل فى يدها ، وانفجرت بالبكاء .

لاحظت فاطمة أن سقف الشقة عال ، لا تصل إليه المقشة ، ولا المنفضة الريش ، ولا قطع القماش ، كما فى البيوت الجديدة . طلبت من جودة البواب أن يشترى ما سمته رأس العبد . أومأ بفهمه للتسمية . بدت رأس العبد هى الوسيلة الصالحة لإزالة العنكبوت والتراب من الأسقف ، والزوايا العالية لجدران .

لمحت ـ فى مرآة الصالة ـ تمعن فاطمة فى وجهها . أبرز الفستان الأسود بياض بشرتها . عيناها اللوزيتان ، أحاطت بهما هالتان من السواد . وامتدت خطوط رفيعة متعرجة على الجبهة ، وحول الفم ، وعلا الشفة زغب أصفر ، خفيف . تحيط رأسها وعنقها بشال أسود طرزت حواشيه بخيوط مذهبة . ترتدى عباءة سوداء سابغة ، لا يظهر منها إلا وجهها ويديها .

أشاحت بيدها :

– كبرت !

قالت فاطمة :

ما أراه بضع شعرات بيضاء .. لو أننا صبغناها لن يزيد عمرنا سنة واحدة !

ثم فى نبرة متعاطفة :

– أنت فى عز الشباب .. حياتك أمامك !

أتت فاطمة من سوق الترك بخلطة أعشاب لإزالة التجاعيد من حول العينين . ترددت في قبولها . مسحت بها أمام مرآة الحمام . لاحظت نعومة في موضع الخلطة ، فكررت استعمالها .

أزمعت أن يراها محرم - ذات ليلة - بما يرضيه .

تراجع للبودرة في خديها ، والريميل حول عينيها ، والحمرة في الشفتين - لماذا نبدِّل خلقة الله ؟!

ألفت مشاركة فاطمة لها في اختيار الطعام الذي تأكلانه ، ماذا تشاهدان في برامج التليفزيون ؟ هل تخرجان ، أم تظلان في البيت ؟

تتحدثان عن أحوال الجو ، وارتفاع الأسعار ، والتنزيلات ، واختفاء السلع من المجمعات الاستهلاكية ، وظهور فاكهة جديدة في أوانها .

تحكي لها فاطمة عند قدومها - في الصباح - إن كانت قد ركبت ترام خمسة المتجه إلى المنشية ، أم اخترقت الشوارع حتى شارع السبع بنات ، ومنه إلى ميدان المنشية ، تدور حول مبنى المحكمة الوطنية في الزاوية المواجهة للبحر ، تميل في طريق الكورنيش . إلى يسارها مبنى القنصلية السويسرية ، فالبنايات المتشابهة ، المتلاصقة . تدخل البيت بألفة الأعوام .

تحدثها فاطمة - وهما تتناولان الفطور - عن حياتها خارج البيت ، عما لا تراه عيناها ، فيحاول ذهنها تصوره . التنقل بين بيتها في كرموز وبيت ابنتها في غربال ، تصفية ملابس الشتاء في هانو ، أول شارع توفيق ، تأخرها عن المجيء لوقوفها بالساعات ، تحمل حفيدها ، أمام مستشفى دار إسماعيل ، هذه طعمية من البغدادي تستحق بقك ، شروة سمك من باب عمر باشا ، لمذاقه طعم أحلى من سمك الحلقة ، محمود - زوجي - قال إن

مكتب المرحوم محرم بك مازال خالياً لم يشغله أحد ، إمام جامع العمرى قال لنا فى الدرس إن المرأة الدميمة غير ملزمة بالحجاب (تدارى ابتسامة مشفقة) من توافق على أنها ليست جميلة ؟ ، زحام المواصلات أخرنى هذا الصباح ، البلد كأنها تهاجر ، حتى السمك يغشه الباعة ، باع الرجل- فوق كوبرى كرموز- قشر بطيخ مغموساً فى الدقيق والبيض ، وسواه فى الزيت ، صدّق الناس أنهم اشتروا سمكاً مقلياً ، حادثة بشعة فى شارع مينا البصل عربة محملة بأنابيب البوتاجاز ، اصطدمت بسيارة ملاكى ، احترقت الملاكى بمن فيها ، ولد صغير .. تلميذ .. بتر ترام ستة ساقيه (تضرب نجاة صدرها بعفوية : ياسم) ا، ضابط مباحث اللبان ألقى القبض على تاجر مخدرات يبيع بضاعته فى تقاطع شارعى عمود السوارى وباب الملوك ، صفافير البواخر فى الميناء الغربية أصبحت- منذ أيام- بجنون ، فلا تسكت .

تلتقط الأسماء والمفردات ، تحاول تجسيدها فى الذهن . كرموز وغيط العنب وكوم الشقافة وكفر عشرى وباب سدرة وعمود السوارى والبياصة ، تصل بين الأمكنة ، ترسم الملامح والقسمات .

لم تكن تبوح بمشاعرها لأحد ، وتكتم ما تعتبره سرها الشخصى .

تلاشى ما ألزمت به نفسها ، وما كان قائما بينها وبين فاطمة من حرج .

لا تناقش إن كان ما ترويه مما جرى ، أو ما يشغلها ، هو من الأسرار التى تأتمن فاطمة عليها ، لا تناقش حتى إن كان سراً ، أم أنه مجرد حكايات بين صديقتين ؟

خصصت لها حجرة القعاد ، السرير الخشبى الصغير لصق الجدار ، إلى جانبه طاولة صغيرة ، وكرسيين ، وثمة مرآة بيضاوية توسطت الجدار .

أتت فاطمة من سوق الترك بخلطة أعشاب لإزالة التجاعيد من حول العينين . ترددت في قبولها . مسحت بها أمام مرآة الحمام . لاحظت نعومة في موضع الخلطة ، وكررت استعمالها .

أزمعت أن يراها محرم ـ ذات ليلة ـ بما يرضيه .

تراجع للبودرة في خديها ، والريميل حول عينيها ، والحمرة في الشفتين .

– لماذا نبدّل خلقة الله ؟!

ألفت مشاركة فاطمة لها في اختيار الطعام الذي تأكلانه ، ماذا تشاهدان من برامج التليفزيون ؟ هل تخرجان ، أم تظلان في البيت ؟

تتحدثان عن أحوال الجو ، وارتفاع الأسعار ، والتنزيلات ، واختفاء السلع من المجمعات الاستهلاكية ، وظهور فاكهة جديدة في أوانها .

تحكي لها فاطمة عند قدومها ـ في الصباح ـ إن كانت قد ركبت ترام خمسة المتجه إلى المنشية ، أم اخترقت الشوارع حتى شارع السبع بنات ، ومنه إلى ميدان المنشية ، تدور حول مبنى المحكمة الوطنية في الزاوية المواجهة للبحر . تميل في طريق الكورنيش . إلى يسارها مبنى القنصلية السويسرية ، فالبنايات المتشابهة ، المتلاصقة . تدخل البيت بألفة الأعوام .

تحدثها فاطمة ـ وهما تتناولان الفطور ـ عن حياتها خارج البيت ، عما لا تراه عيناها ، فيحاول ذهنها تصوره . التنقل بين بيتها في كرموز وبيت ابنتها في غربال ، تصفية ملابس الشتاء في هانو ، أول شارع توفيق ، تأخرها عن المجيء لوقوفها بالساعات ، تحمل حفيدها ، أمام مستشفى دار إسماعيل ، هذه طعمية من البغدادي تستحق بقك ، شروة سمك من باب عمر باشا ، لمذاقه طعم أحلى من سمك الحلقة ، محمود ـ زوجي ـ قال ن

عنه ، أو تتكلم فيه . حدست أن جلوسها إلى فاطمة هو المخرج من وحدتها الصامتة ، التكلم في ما يشغل خاطرها من الأحداث ، والتصرفات ، واستدعاءات الذاكرة ، وهواجس الوحدة .

لاحظت في نفسها ميلاً إلى تأمل من يكبرونها في السن ماذا ستكون عليه حين تصل إلى أعمارهم ؟ ما يطرأ على ملامحهم من تغير ، هزال الجسد ، أو تهدله ، سقوط الشعر ، وشحوب بريق العينين ، وارتسامات التجاعيد حول العينين والشفتين ؟ ماذا يقولون ؟ كيف يتصرفون ؟ هل تسير بالبطء نفسه ؟ هل تقوى على صعود السلم ؟ هل تنطوي على نفسها ، أم تحتمي بتقدم السن فتفعل ما قد ترفضه الآن ؟

اولى وسط الأرضية كليم أسيوطى يمتد إلى قرب النافذة .

فى أول زيارة إلى الطبيب ـ بصحبة فاطمة ـ ارتبكت السؤال :

– ما أحوال الأستاذ محرم ؟

خمن ما حدث لما مسحت ـ بظهر يدها ـ دموعاً طفرت من عينيها .

– هل ..

واستطرد فى نبرة مواسية :

– البقاء لله !

تكلمت عما تعانيه : تشعر ـ فى الصباح ـ بثقل جسدها ، فلا تستطيع القيام من السرير ، أو حتى مجرد الحركة .

قال الطبيب مهوناً :

– إذا طردنا الهموم فسنطرد الأمراض .

قاس الضغط ، ودرجة الحرارة ، وسأل عن ظروفها الصحية .

نصحها بأن تبتعد عن التوتر والقلق والإجهاد ، وتنشيط الدورة الدموية ، بالسير قدر ما تستطيع .

كتب خمسة ، وربما ستة ، أدوية . قال وهو يربت ظهر يدها براحته :

– الدواء لا نستعمله إلا عند الضرورة !

دفعها الفراغ والإحساس بالفقد إلى التفكير فى ما حولها ، وفى التوقعات ، تحاول أن تفكر فى شيء قد يكون تافهاً ، لمجرد التأكد من قدرتها على التذكر ، تستدعى أسماء أقارب وجيران ومعارف ، ترددها ، تلاحظ إن تعثرت فى قراءة الاسم ، أو تلكأ نطقها ، أو أنها نسيته .

تكتشف أنها تكلم فاطمة كثيراً ، تروى ، وتلاحظ ، وتبدى الرأى ، تسأل، لا تنتظر رداً عن أسئلتها ، ولا تنتظر حتى تستكمل فاطمة ما تسأل

بكلمات قاسية . عمق من ألمه أن أباه قرأ ما حرص على إخفائه ، ما كان يعتبره سره الشخصي . ليس مجرد خطأ يستحق المؤاخذة . قلب أبوه في مكتبه وأوراقه ، حتى عثر على ما لم يتصور أن عيني أبيه تصل إليه .

تأملته بجانب عينها . أخذ ملامحه من أمه وأبيه ، ليس فيه ما يشبهها ، لكنها تحبه ، تقبل - من أجله - ما لا تتصور أنها تسكت عنه ، تشعر أنها تحيا من أجله ، أو أنه هو حياتها .

وهي تتظاهر باللامبالاة :

- من حق أبيك أن يؤدبك .

وربتت صدره :

- لابد أنك أخطأت .

اعتادت أن تكتفي بمشاهدة نتائج المشكلات بين باسم وأبيه . تختلف البواعث ، لكن المشكلات تظل قائمة .

تكتم الإشفاق على باسم في نفسها ، وتكتفي بالمشاهدة ، والصمت .

ضغطت براحتها على يده :

- نتكلم فيما بعد ..

ثم وهي تتجه إلى المطبخ :

- يمكن أن تنام في حجرتي .. لا أنام فيها منذ وفاة جدك .

أشار إلى نفسه :

- هل أقيم هنا ؟

نظرت إلى يديه الغاليتين :

- استرح الآن .. نتكلم فيما بعد .

لم يضع في باله أن أباه يقلب في أوراقه . يكتفي بالسؤال عن مذاكرته

قالت وهى تتفرس فى ملامحه ، الوجه المستدير الممتلئ ، الشرب محمرة. العينين العسليتين ، الأسنان المفلوجة

- مالك ؟

ألقى باسم بالحقيبة إلى منضدة السفرة :

- تركت البيت .

- لماذا ؟

ارتجفت شفتاه بالتوتر

- بابا .. صفعنى ..

ومضت ابتسامتها المشفقة وهى ترقب تسحب باسم إلى حيث يجلس محرم ، تصرفه العفوى حين يرمقه رامى - لحظاً ما - بنظرة معاتبة ، يلاصق كتف محرم ، كأنه يحتمى بجده من غضب أبيه .

قالت :

- هذه ليست أول مرة ..

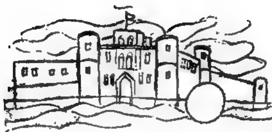
اتسعت عيناه بالدهشة

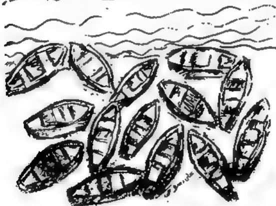
- كأنك توافقين على ضربه لى ..

وتداخلت فى صوته نبرة محتجة :

- لم أعد صغيراً .. بعد أشهر سأدخل الجامعة .

لم تكن هذه هى المرة الأولى التى يصفعه أبوه ، أو يلكزه ، أو يزجره





ومـا يحتـاج إليه ، ربما لم يكن لديه ـ في تلك اللحظة ـ مـا يشـغله ، قلب الكراسة كمن يتصفحها ، سقطت الورقة المطوية ، فالتقطها .

– لمن هذه الكلمات ؟

وعلا صوته كأنه يصرخ :

– من البنت ؟!

اكتفى بهز رأسه في حيرة .

صاح الصفعة ، والمفاجأة التي لم يتوقعها ، الزجر وسيلة أبيه لعقابه ، يظل في صمته حتى تغيب المناسبة .

اندفع ـ بتلقائية ـ ناحية الباب . أهمل نداء أمه في ركضه على السلم .

تناهى صوت هناء في التليفون منفعلاً :

– باسم أخطأ ، ومن حق أبيه أن يعاقبه !

قالت نجاة :

– ابنك الآن شاب ، رجل .. لا تقيديه بالتحذيرات والأوامر !

استطردت كمن تلقي نصيحة

– من حق أي شاب في سنه أن يكون له أصدقاء وحياة خاصة ..

قالت هناء :

– أنت من تفسدينه !

وهي تعيد السماعة إلى موضعها

– تكلمين أمك !

السفارة الإسرائيلية ، وطرد السفير ، وإدانة التأييد الأمريكي لحكومة تل أبيب . التحموا بطلاب العلوم والزراعة والحقوق والتجارة والآداب ، قدموا من شوارع صلاح سالم وتوفيق وسعد زغلول وطريق الكورنيش ، التقوا في ميدان المنشية .

تفحصته نجاة كمن تتأكد من شيء :

– كذبة إبريل ؟

هز باسم رأسه دلالة النفي :

– نسيت حتى أن اليوم هو أول إبريل .

تدخلت فاطمة :

– المظاهرات في مدن كثيرة .

رمقتها بنظرة متوجسة :

– كيف عرفت ؟

– قناة الجزيرة .

هزت رأسها في صمت .

أول النهار ، تثبت فاطمة التليفزيون على قناة فضائية ، تتابع إرسالها أثناء تحركها في الشقة . تطيل نجاة وقت بقائها في السرير ، حتى تدعوها فاطمة إلى الإفطار .

ربتت ـ ذات صباح ـ كتف فاطمة :

– لا أعرف ماذا كنت سأفعله بدونك هذه الأيام .

لاحظت أنها تجيد فهم الناس بالفطرة ، مجرد أن تستمع إلى الشخص وتتابع تصرفاته ، تستطيع أن تعرف ما طبيعته ، وإن كان طيباً أم أميل إلى الشر .

فتحت الباب لتلاحق رنين الجرس ، نظرت ـ بتساؤل صامت ـ اللهفة فى ملامح فاطمة .

- مظاهرات فى المنشية .

هتفت بعفوية

- باسم !

ضربت صدرها بيدها :

- بعد الشر عنه !

وملأت وجهها ابتسامة مهونة .

- البوليس لا شأن له بما يحدث ، يكتفي بالفرجة من بعيد .

ثم وهى تهز يدها .

- لا تخافى !

لم تخف قلقها حتى ترامى صفير باسم ـ الذي ألفته ـ فى صعوده على السلم .

ظلت صامتة ، وهو يروى ما حدث ساعات النهار . المظاهرات التى فاجأته هتافاتها داخل مدرج الكلية ، آلاف الطلاب تركوا مبنى كلية الهندسة، انطلقوا فى شوارع المدينة ، يرفعون الأعلام المصرية والفلسطينية، يندون بالهجمات الإسرائيلية على الضفة الغربية وغزة ، وباستمرار حصار مقر ياسر عرفات ، يهتفون لفلسطين والمقاومة وعرفات ، يطالبون بإغلاق

- لماذا لم تعد إلى البيت ؟
- أغلقت الشرطة الطريق إلى البيت . طريق الكورنيش مغلق بطوله ..
استطرد وهو يلتقط أنفاسه من الكلمات
- حتى الشوارع الجانبية أغلقت .
حدجته بنظرة مستفهمة
- ما شأنك ؟
- هل أقدم لهم نفسي كي يقبضوا عليّ ؟"
ثم وهو يحاول تفادي نظرتها :
- ظللت في محطة الرمل حتى فتحوا الطريق ..
لم تكن بعيدة - مأحاديث زوجها - عن قضايا السياسة . ينتقل من قضية إلى أخرى ، يفسرها ، ويبدي رأيه . لا تفرغ الأحاديث - في أوقات فراغه - بينها وبينه ، ولا تشعر - لحظة - بعدم الفهم ، أو الملل .
تداخلت في عبارات ماسم كلمات مما كان يتناثر في أحاديث محرم إليها أمريكا ، الوفد ، مجلس الأمن ، عبد الناصر ، التجمع ، القدس ، حرب أكتوبر ، مبارك ، كامب ديفيد ، السادات ، الانتفاضة ، التلوث ، الحزب الوطني ، البطالة ، مجلس الشعب ، النكسة ، الأمم المتحدة ، الغلاء ، الفساد ، الرشوة ، الكرة ، الجماعات الدينية ..
عاودت رؤية لوريات الشرطة في موازاة رصيف الكورنيش ، صف طويل من اللوريات ، أطلت من قضبانها الحديدية أعين العساكر ، وتناثر بينها عساكر يحملون المدافع الرشاشة .

باحت لفاطمة بما تصورت أنها نسيته ، وعرفت من فاطمة ما لم تكن تعرفه ، حتى من قبل أن تصحب محرم - المرة الأولى - إلى البيت .

عرفت كل منهما عن الأخرى ما تفضل مشاهدته في برامج التليفزيون ، الطعام الذى تحبه ، الألوان التى تفضلها ، أغنيات تميل لسماعها

اتجهت بنظرتها إلى باسم

- كنت فى المظاهرة ؟

- كل الطلبة كانوا فيها .

شعرت بوجهها يشتعل :

- ألم تخف على أمك ؟ ألم تخف عليّ ؟!

- كنت واحداً من آلاف ، والشرطة لم تتدخل .

- لو أنها تدخلت .. هل كنت تمنعها ؟

شوح بيده :

- لا شأن لى بالمظاهرات ولا بالسياسة .

لما تحدث عن حضوره مهرجاناً لنصرة القضية الفلسطينية ، ارتعش صوت رامى بالغضب

- أصرف عليك لتصبح مهندساً لا زعيماً سياسياً .

ووسم صوته بنبرة باترة

نحن أسرة محترمة ، لا شأن لنا بالسياسة !

لملم باسم جرأته

هل السياسة كذلك ؟.. هل هى شيء غير محترم ؟!

رمقه بنظرة مستاءة ، وعاد إلى الأوراق أمامه .

وهى تحاول إخفاء القلق :



هل أصبح باسم جزءاً من المشهد الذى تكتفى برؤيته ؟

اجتذبها من المطبخ - فى اليوم التالى - ترامى صيحات وهتافات ، من طريق الكورنيش .

أطلت من النافذة .

مظاهرة ؟ ألم يمنعوا سير المظاهرات فى هذا الطريق ؟

العشرات من الطلاب رفعوا الأيدى والأعلام والهتافات واللافتات ، يسيرون فى اتجاه المنشية ، ملأوا الميدان عن آخره . أحاط بهم صفوف من عساكر الشرطة ، فلا يتوزعون إلى الشوارع الجانبية .

قال باسم

– ربما فطنت الحكومة إلى أن المظاهرات لا تقتصر على الإسكندرية .

وعلا صوته :

– كل الدنيا تتظاهر ضد العدوان الإسرائيلى على الضفة وغزة .

أضاف لدهشتها المتسائلة

– شاهدى القنوات الفضائية .

- هل هى مظاهرات كتلك التى خرجت أيام السادات ؟

قال .

- إنها ضد إسرائيل .. هذه المرة .

ووشى صوته بسخرية :

أعلن السادات سحب قرارات الغلاء بعد خروج المظاهرات .. قد تعلن إسرائيل انسحابها من فلسطين هذه المرة !

مالت نجاة على باسم بنظرة متسائلة

- وعيت على قضية فلسطين .. أما من حل لها ؟

قال باسم

- إذا استرد الفلسطينيون أرضهم من اليهود .

- ولماذا أخذها اليهود ؟

رتد العالم كله أمامه ، اختلطت الصور وتشابكت . أغمض عينيه يفتش عن الكلمات المناسبة ، ثم عبر بيديه عن الحيرة التى تتملكه

- اسألى بابا !

استغربت الإجابة .

كان - منذ طفولته وحتى الثانوية العامة - كثير الأسئلة ، لا تقف أسئلته عند قضية محددة ، ولا معنى بذاته ، لا يتدبر تأثيرها ، وما إذا كانت تحتمل الإجابة ، أو تواجه بالزجر كيف ولدتنى ماما ؟ أين كنت قبل أن أولد ؟ الله خلق الدنيا ، من الذى خلق الله ؟.. هل المسلمون وحدهم يدخلون الجنة ؟ لو لم نعرف أن الله موجود ، هل كنا نحاسب ،

وشى صوت رامى بالقلق :

- باسم عندك ؟

وضعت سمعة التليفون فى يد باسم .

تلاحقت كلمات رامى ، تحذر من اشتراك باسم فى المظاهرات .

نقل ما سمعه التوتر يسيطر على المدينة . أغلق عساكر الشرطة أبواب الكليات ، حطمها الطلبة ، وبعثوا العسكر أمامهم ، تدفقوا فى الشوارع يهتفون ضد شرون وإسرائيل دارت معارك بين المتظاهرين والعساكر اختلط الهتاف والشعارات المنغمة والصراخ والصياح وضربات العصى والغاز المسيل وإطلاق الرصاص فى الهواء . قُتل طالب ، وأصيب كثيرون . أغلقت الكليات والمدارس ، أنزلت المحال ستائرها المعدنية . حتى المحال التى ظلت مفتوحة ، أصرت الشرطة على إغلاقها . اصطفت اللوريات والعربات المصفحة . سدت الكردونات مداخل الشوارع الجانبية والتقاطعات . خلت الشوارع إلا من المتظاهرين وعساكر الشرطة ، والشواطئ هجرها الناس ، لاذوا بالبيوت والأماكن المغلقة . ارتفعت اللافتات والأعلام الفلسطينية فى الأيدى وصور ياسر عرفات وجمال عبد الناصر ، وألصقت على نوافذ السيارات . أطل السكان من الأسطح والنوافذ والشرفات . تعالت سارينات عربات الشرطة والإسعاف والمطافى .



يندخل الجنة والنار ؟ أين توجد الجنة ؟ وأين توجد النار ؟ هل الله في السماء وحدها ؟ لماذا يصر بابا أن أنام بمفردي ؟ كيف يعلو الطائر في السماء ؟ إلى أين تذهب السفن في البحر بعد أن تختفي ؟ هل هي نهاية الدنيا ما نراه من التقاء البحر بآخر السماء ؟ لماذا تكرهين أبي ؟

أولى قبلاته لها في الليلة الثانية لمجيئها . عادا من جلستهما على المقعد الرخامي ، تكلما فيما لم يدره أحدهما في نفسه . ثاني يوم ، كتفيها بالجلوس في الشرفة المطلة على طريق الكورنيش . قامت للنوم ، فلحقها ، أدار كتفيها ، واجهته ، لامس فمها بشفتيه . ثم ضغط . سرى بالنشوة في جسدها ، شعرت أنها تغيب عما حولها ، وأنها ليست في الدنيا .

غاب إحساس جسدها بالغربة في حضنه ، يستكين - في طمأنينة - إلى التفاف ذراعيه حول خصرها ، مداعبة راحتيه لعنقها ، وجيدها ، وصدرها ، قبلاته ، همساته المحرضة .

لم يكن للقاءاتهما الجسدية مواعيد يلتزمان بها . تحركهما العفوية ، تمهد للفعل ومضة العين ، ملامسة اليد ، ارتعاشة الصوت . تحل لحظات رتباك تشي بالفعل الآتي .

أشفق - في البداية - من عدم فهمها . ترك - لتحقيق متعتها - نفسه . تفعل ما تشاء ، تجوس في مواضع الإثارة ، يستسلم لداعباتها ، تظل سيدة اللحظة ، تأخذ ما تريد ، ويهمل ما يريده . تجلس على بطنه كمن يركب جواداً ، تتجه بأعلى صدرها ناحيته ، أو تعطيه ظهرها . فتح عينيها على عالم جديد ، لم تكن تعرفه ، ولا تصورته من قبل .

لاحظ - ذات صباح - ميلها إلى استعادة تفصيلات ما لا يروى . تمازج في لهجته الحسم والإشفاق :

ما يحدث في الليل ملك الليل وحده !

حين تباعدت لقاءاتهما العاطفية ، تعلل بأعذار تدعوه لأن يمضي الليل نائماً . أدركت أن الأوقات لم تعد كلها مناسبة ، تكتفي بالاستجابة في الأوقات التي يختارها . تشعر باستيقاظ رغبته بنظرة تعرفها ، اختيار

تراجعت لرؤية باسم يحتضن البنت على الكنبة . أحاطها بساعديه ، ضغطها إلى صدره ، مال على وجهها ، قبلها فى وجنتها ، وفى ذقنها ، صعد بفمه إلى عنقها . امتدت راحته المتكورة داخل بلوزتها ، تضغط على النهدين الصغيرين . كانت البت تطوح رأسها ، وتصدر تأوهات مكتومة فى محاولة لتتملص ، حتى أفلتت منه .

عادت بصينية الشاى الذى أعدته لمساعدتهما على المذاكرة .

قدم البنت لها بأنها تشاركه المذاكرة ، يشرح أحدهما للآخر ما يغمض عنه . أذن لها أهلها بلقاءات البيت ، يزورها وتزوره .

قال أبوها وهو يغلق الباب وراءهما :

– هى أختك ، فاحرص عليها .

قالت لنفسها وهى تعانى الارتباك فى وسط الصالة : هل يكتفيان بعناق وقبلة ، أو أنهما يمهدان للعلاقة الكاملة ؟

دفعت محرم لما هبط بشفتيه إلى عنقها :

– لا تفكر فى أكثر من هذا .

لم تكن تعرف عن علاقات الزوجين ما يعينها على الفهم . لم تهبها نصيحة ، ولا مجرد إيماءة .

حين أغلق الباب وراءهما كانت تجهل كل شىء . فطن إلى أن إكراهها على العلاقة ربما يؤلمها ، فتكرهه . لا تزال طفلة ، ومن الخطأ أن يعاملها بغير مشاعر عمرها .



العبارات ، تلوين الصوت بنبرة أقرب إلى الهمس . امتد الهدوء إلى ميكانيكية العلاقة ، يقبلان عليها تكملة لما كان ، وما سيأتي .

وقال ـ ذات صباح ـ في صوت خافت ، كأنه يحدث نفسه

– يجب أن تعترف ، لم يعد لحسدينا ما كان فيهما من قوة !

كانت رغبتها على حالها ، لكنها رضيت استبدال ما اطمأن إليه من صداقة هادئة ـ أحبتها ـ بالعلاقة الجسدية .

يناوشه ما يدفعه إلى معانقتها . تحتوه رغبة في أن يضمها إلى صدره . يصدمه الإحباط .

يكرر المحاولة ، حتى يستكين إلى الفشل .

اعتادت نومه إلى جوارها ، دون أن يقربها ، ليلة وراء أخرى ، يتجه إلى الناحية المقابلة ، تعرف من غطيطه أنه راح في النوم .

ما رأته لم يدر في بالها ، ولا تصورته . بأسم حبيب قلبها ، يهب الحب والإشفاق والتعاطف .

تبينت همس الصوت في ندائها على باسم . أعادت النداء بصوت أعلى ، اتجهت بنظراتها ـ ربما لتتخلص من الارتباك ـ إلى النافذة المطلة على البحر . لنوارس سحابات صغيرة ، متطايرة ، وقبعات صيادي السنارة تعلو الأجساد المختفية ، أسفل الكورنيش الصخري ، والحرارة تتصاعد فوق المياه بتموجات مرتعشة ، والرطوبة محملة برائحة الملح والطحالب والأعشاب .

أهملت محاولة باسم عدل ثيابه

– البنت تحبك ، فاحرص عليها !

وهي تدفع أمامه طعام الإفطار

– عرفت لماذا لم تعد تطلب حواديتي .

ودارت قلقها بابتسامة فاترة :

– اكتفيت بحواديت مي !

واكتست ملامحها جدية :

المجاح يتعوق شرط أبيك لكي تظل معي !

لأيام متشابهة ، كتوالي أيام الصيف . لم يعد ممكناً أن تعود الحياة إلى ما كانت عليه .

قالت فاطمة

– هل تظلين سجينة هذه الشقة ؟

وتكلمت عن اقتصار حركتها على حجرات الشقة والصالة والمطبخ والحمام ، والجلوس وراء النافذة المطلة على البحر .

– تعيشين في الإسكندرية .. رأيتها ؟

– نزلت مع محرم مرات كثيرة

استطردت فاطمة في نبرة مشفقة

– آخرها السلسلة أو سراي رأس التين .

وأحلت للإشفاق ملامحها

– الدنيا واسعة .

أظهرت الدهشة :

– أتمشى على شاطئ البحر ؟!

مدت فاطمة يديها كمن تدفع خطراً

– مقامك محفوظ !. ما أشير به أن تنزلي في مشاوير قريبة .

تنبهت إلى أنها ـ منذ فترة بعيدة ـ تجلس على الكرسي نفسه ، تطل من النافذة إلى أفق البحر .

مجرد أن تطل على البحر ، ترنو إلى آماده اللامتناهية ، يداخلها الشعور بالأمان . ليس ثمة ما يضايقها . أو يثيرها .

بدت فاطمة شخصاً مناسباً ، تتبادل معه الأحاديث . ما تريده هو الفضفضة ، لا تميل إلى من يضايقها بالأسئلة ، والتفتيش عن المعنى الغائب ، وإقحام الذات ، حتى في المشكلات التي قد لا تخصها

ما أثار قلقها أنها كانت تشعر - في داخل الشقة - بالحرية ، وإن ناوشها شعور - لا تدرى بواعثه - بالوحدة .

تحددت دنياها في هذه الشقة ، تطل من النافذة على البحر ، والشارع الفاصل ، ومدى الرؤية من الناحيتين .

تعرف أن حديقة المنشية قريبة . تسير إلى بداية الجندي المجهول الرخامية ، تميل إلى حيث الحديقة . هذا هو الطريق كما تتذكره في عودتها إلى البيت . شقة هناء قريبة ، تطل على البحر من زاوية ضيقة ، منفذ بين عمارتين ، الشارع به دكاكين ورخام ، لكنها لا تعرف موضعه ، ولا تتبين ما حوله .

أقسى الأمور أن تصبح وحيدة ، لا تجد من تكلمه ، تأخذ منه وتعطى ، تبوح بما في نفسها .

غالبت تأثرها وهي تقول لباسم في التليفون

- نسيت هذا الصباح ، فأعددت شاياً لى ، ولك .

وسرت في صوتها ارتعاشة :

- نسيت أنك لم تعد معى !

مشاعر متباينة تتماوج في صدرها بانقباض لا يفارقه . كأن الحجرة حاصرها ، تطبق عليها ، تمتد يداها - بتلقائية - إلى جانبيها ، كأنها تريد فع الجدران ..

ما يؤلها تلاشى الأحلام عقب استيقاظها ، كأنها لم تكن ، تعجز عن ستعادتها ، أو بعض قسماتها . الكابوس يظل فى الذاكرة ، تناوشها ملامحه القاسية ، ترويه لفاطمة ـ تطلب تفسيره ، أو أنه مجرد هواجس لا معنى لها .

قد تصحو ، دون أن تدرى إن كان ما رأته ، أو عاشته ، قد حدث بالفعل، أم أنه كابوس ؟

يداخلها ما يشبه الغيرة ، حين تتكلم فاطمة عن نومها ممدودة الحيل ، لا تزورها أحلام ولا كوابيس ، حتى تستيقظ على ترامى تسابيح ما قبل أذان الفجر من أبو العباس .

ربما أنصتت إلى أحاديث فاطمة عن أحوال ابنتها التى صار لها ولدان ، ورسائل ابنها من البلد الخليجى .

لم تعد الخادمة القديمة ، هى الآن صديقة ، تأخذ وتعطى ، وتبدى الرأى، وتجلس حوارها إلى المائدة ، وأمام التليفزيون ، وتنظر من النافذة المطلة على البحر .

فاجأتها فاطمة بالقول .

– لماذا لا تنزلين إلى السوق ؟

ثم فى نبرة موضحة

– تشترين بنفسك ما تريدين .

انترعت ابتسامة

أنا ؟

– هل تظلين حبيسة الشقة طول العمر ؟

وهى تدارى توترها :

تبوح لفاطمة بكل ما في نفسها ، لا تخفي شيئاً ، حتى ما تتذكره من أحلام ، حتى أحلام اليقظة ، مجرد البوح ، لا تطلب الرأي ولا النصيحة . قد يداخلها حزن لغير سبب ، يثقلها بالتوقعات القاسية ، تتجه إلى فطمة بملامح متقلصة ، وعينين دامعتين :

– لا أريدك معي الآن .. أريد أن أبكي !

كانت قدماها تطأن الأعصان المتناثرة ، في الممر المغطى بالأشجار المتكاثفة ، طالعها ـ في مدى الرؤية الشاحبة ـ وجه له ملامح أليفة ، كأنها رأته من قبل ، وإن لم تعرفه . في اقتراب خطواته ، تبدلت الملامح ، بدت كمسخ شائه الخلقة ، تنتهي يداه بمخالب طويلة ، وعيناه تصدران شرراً ، و الدماء تسيل على جانب فمه الواسع . تلاحقت صرخاتها باقتراب المسخ ، أنقذتها هزة فاطمة لكتفيها .

انتفضت لتروي ما حدث ..

مطقت عينا فطمة بالتوجس ، وإن ربتت ركبتي نجاة مهونة :

خيراً إن شاء الله .. نتائج الأحلام عكس ما نراه !

ظلت الكوابيس تقلق نومها ، لم يكن فيها من تعرفهم ، لا محرم ولا هناء أو بسم أو رامي ، لا أحد حتى من أهلها في دمنهور ، أو جيران البيت . اختلاط ملامح يصعب عليها أن تتبينها .

تكررت الكوابيس في ليال تالية ، متقطعة ، متلاحقة ، كأنها تنتظر حتى تذهب في النوم .

تصحو على طرقات وضربات وأشباح وأطياف ومردة وغيلان وصرخات وزئير وعواء وبدامات ، ورءوس حيات وأفاعي ، وأعين تطلق شرراً ، وأفواه تقطر دماً ، وألسنة متدلية كالأسياخ ، وأظافر طويلة متداخلة ، ومخالب ، وكائنات لا تعرفها ، يبين على ملامحها ـ حين تصحو ـ ما عانته في نومها

الطابق الثالث . اعتـادت صوت طشيش تقلية الملوخية ورائحتـها [ألا يطبخون سواها ؟] ، ترنو - بعفوية - في البسطة الأخيرة - إلى الطابق الرابع ، والسلم الحديدي ، المفضي إلى السطح .

ألفت الكلام ، الأخـذ والرد والمصـال والسـؤال والجـواب ، مع البـاعـة والمتعاملين مع الشقة : كشاف النور ، المحصل ، الباعة ، البواب .

لاحظت الحياة من حولها

الجيـران ، والطائرات الورقيـة ، وانطلاق السـيارات ، والجالسين على الكورنيش ، والبـاعـة ، وصيـادو السنارة ، والطراحـة ، و لجـرافـة ، والبلانسات المتناثرة في الميناء الشرقية .

تستعيد - في وحدتها داخل البيت ، أو وهي تجلس إلى فاطمة ، أو إلى باسم [عاد إليها] ومضات ، نثارات من المشاهد ، التقطتها الذاكرة في المشاوير بين البيت والأماكن التي ترددت عليها ، الأسـواق والشوارع والحواري والجوامع والمقامات والأضرحة وشاطئ البحر وحلقة السمك

موكب عروسين يدور أمـام بـاب أبـو العـباس .. قط - في فـمـه سمكة - يجري ، بقفزات سريعة ، خارج الحلقة . جرسون قهوة فاروق يفرش نشارة الخشب على مربعات البلاط . سقوط حرف من العبارة الإنجليزية أعلى نادي اليخت . عجوز تلصق شفتيها بالإطار النحاسي المحيط بمقام على تمراز ، وتبكي .. مرجيحة خالية في سوق العيد ، تحدث صريراً بانـدفـاع الهـواء . امرأة أمسكت طفلها من رسغه وهو يتعثر في إثرها .. مشاجرة بالأيدي بين نسوة في شارع الأباصيري .. فتاة تميل على منشر غسيل ، تفرد الملابس المبتلة ، وتثبتها بالمشابك .. صبي حلاق في إسماعيل صبري مشغول بكنس بقايا الشعر المتناثرة على الأرض .. عود

– لا أعرف ما في نهاية الشارع !

فوتت فاطمة الملاحظة :

– تحتاجين حذاء جديداً ..

ودارت ابتسامة في كمها :

– أحذيتك موضة قديمة !

– احتجت إليها السفر إلى دمنهور ، أو التردد على الطبيب .

اخترقت زحام سوق راتب ... علت النداءات والمساومات والشتائم ، تلاصقت سيارات النقل وعربات الكارو وعربات اليد ، فوقها ، والمقاطف والسلال وأقفاص الدجاج والفاكهة وكراتين البيض والجبن والسجق المتدلي كضفائر الشعر على واجهات الدكاكين ، وأطباق السمان والعصافير ، وعربات الطحال المشوى ولحمة الرأس والممبار وحمص الشام و لبليلة والكشرى . تكومت ـ أسفل الرصيف وفي النواصي ـ أوراق ممزقة وبقايا خضروات وفاكهة وسمك ، تختلط روائحها برائحة الشواء والسمك المقلي والفلافل والبخور والعطور والدخان المحترق ، وتترامى ـ من موضع قريب ـ أصوات دق العطارة .

غادرت الشقة ـ في الأيام التالية ـ تشترى لوازمها بنفسها ، بمفردها ، أو بصحبة فاطمة . يطالعها ـ عند العودة ـ صف البنايات المتساوية الطوابق والارتفاع ، والشبابيك العالية ، وإن اختلفت الشرفات والمقرنصات والنقوش والزخارف الجصية .

تميز باب البيت من الدكان المغلق إلى يساره [عرفت أنه مخزن] ، تدفع الضلفة الحديدية ، تستند إلى الدرابزين الخشبي في صعود السلالم إلى

هناك دنيا حقيقية خارج البيت . الدنيا الحقيقية خارج البيت .

غالبت التوتر في صوتها :

ـ الإسكندرية جميلة بالفعل .

كانت جالسة إلى نفسها ، وعيناها تتجهان ناحية البحر . تترامى ـ في هدأة الليل ـ أصوات خافتة ، متقطعة ، لاحتكاك إطارات السيارات فوق الأسفلت ، صياح طائر ليلي ، هدير الأمواج في اصطدامها بالمصدات الإسمنتية .

أغمضت عينيها ، وأسندت رأسها إلى الكرسي ، وتنهدت

ـ ما أسخف الانتظار !

يد على ناصية شارع سوق السمك القديم ، رص فيها البرتقال في شكل هرمي .. طائرة ورقية ملونة بين بنايتين .. أولاد يلعبون الكرة في زقاق جانبي ..

صحبها باسم إلى سطح البيت . ظل إلى جانب الرجل حتى أتم إصلاح " إيريال " التليفزيون .

نزل تسبقه الدهشة

ـ الإسكندرية من فوق جميلة .

اجتذبها المشهد الفسيح ـ في تنقلها بين جدار السور ـ آفاق المياه المحيطة بثلاث جهات : الميناء الشرقية ـ من زاوية النظر ـ كأن البيت داخلها ، اختفى الطريق والكورنيش الحجري والمصدات الأسمنتية والشاطئ . ثمة قوارب متناثرة بين لسان السلسلة وقلعة قايتباي ، وفي السماء أسراب طير ، تنطلق ، وتعود . في الناحية المقابلة بحر مختلف ، بواخر ضخمة وأرصفة ومخازن وورش وحاويات ورصات بضائع ومداخن وصواري ورافعات وأوناش وبالات قطن ولوطات أخشاب وأجولة وبراميل وسيارات نقل وعربات كارو والمسارات الثمانية لقطارات البضاعة . خليج الأنفوشي ـ رافقت محرم في السير على شاطئه ـ يصل في انحناءة سراي رأس التين ، بين الميناءين الشرقي والغربي ، تختفي الأمواج والملانسات وورش المراكب والكبائن والجزيرة الصخرية ، وراء البنايات والمآذن ـ أعلاها مئذنة أبو العباس ـ متكئي بالتصور .

البيت ، بما يحيط به من الجهات الثلاث ، أشبه بجزيرة في قلب البحر . تبدو الشوارع أوردة بين البنايات والمآذن والأبراج وأطباق الفضائيات .

– ماذا تشربان ؟
– سأعد شاياً .
ل، تعرفي موضع الشاي والسكر .
ودارت ارتباكها بابتسامة فاترة
– أنتم ضيوفي !
ضغطت على فخذ هناء ، واتجهت إلى المطبخ
– أنا أعرف موضع كل شيء !
قال رامي وهو ينظر إلى ما حوله .
– هل تستطيعين الحياة بمفردك ؟
تتابعت دقات الساعات في مواضعها داخل الشقة ، تلاحقت إلى حد التداخل ، تتمايز في نغماتها وارتفاع أصواتها وخفوتها .
الساعات الكثيرة الموزعة في الشقة ، على الجدران ، وفوق قطع الأثاث ، تشي بحب محرم لاقتنائها ، ساعات بندول ، ساعات مستديرة ، ساعات رقمية ، ساعات لها أصوات الطير ، ساعات ذات دقات كل ساعة ، وكل نصف ساعة ، وصامتة ، مسهات . كلما اجتذبه تصميم ساعة ، قلبها بين يديه ، إن اطمأن إلى جمال التصميم ، بادر بشرائها ، يبحث لها عن موضع في الشقة ، إلى جانب ما سبق له اقتناؤه .
لم تطق اللهجة العابثة في صوت رامي
أضاف دون أن ينتظر إجابتها :
عرفت أن باسم يؤدي الصلاة في أوقاتها
في نبرة حيادية :
– نصحته بهذا .

حين أغلقت باب الشقة عليها ، تصورت أنها لن تزور ، ولن تزار . ليلة لحديقة مثلت فاصلاً بين ما كان ، والأيام القادمة .

عرفت الطريق إلى شارع الميدان ، وسوق راتب ، وميدان المنشية . ربما امتدت مشاويرها إلى أول شارع سعد زغلول ، تشترى ما تحتاجه ، وتعود إلى البيت . ميزت الطريق بدكاكين ولافتات وباعة ، فلا تميل إلى شوارع أخرى .

قلدت فاطمة في فصال البائع ، تذكر رقماً أقل من الرقم الذى يعرضه لبضاعته ، قد لا تعرف الثمن ، لكنها تعرض ثمناً أقل ، تتوقع - كما اعتادت في فصال فاطمة - أن يخصم البائع ما يحضها على الموافقة ، يقتحمها إحساس بالسعادة .

دفعتها الجرأة - ذات صباح - فمالت إلى شارع الفلكى . اشترت حذاء على الموضة في بالها ملاحظة فاطمة عن أحذيتها التى لا تساير الوقت .

تغلق باب الشقة ، تجلس على أقرب كرسى ، تغمض عينيها ، تحاول أن تستعيد نفسها .

تبعت نظراتهما المحدقة في الشقة . لم تشر إلى تخلى هناء عن الثوب الأسود . أرجعته إلى امتثالها لكل ما يريده رامى .

لحقت - بإشارة - تهيؤ هناء للدخول إلى المطبخ

- البحر أمامها .

ثم أظهر التصعب :

- في شقتنا - كما تعرفين - يمكن أن تتمشى عينا الجار داخل شقة جاره!

هل تصارحه بأنها تشعر في داخل البيت براحتها الحقيقية ، لا نظرات متطفلة ، ولا أسئلة ؟

- لما تركت الشقة كنت أشفق على نفسي من التذكر !

وسرى في صوتها ما يشبه الحشرجة

- نحن نظل في فرارنا من الخوف ، ثم نتبين - بعد أن تتعبنا المطاردة - أن الخوف في داخلنا .

ثم استدارت ، صارت في مواجهته

- مجموع ما أمضيته خارج الشقة في اثنين وأربعين سنة لا يزيد عن بضعة أشهر !

استطردت وهي تهز يديها

- لا أخاف الحياة هنا . ليس لمحرم في حياتي سوى الذكريات الجميلة

بدت في هيئة من اتخذ قراراً

- لست في حاجة إلى المداراة . أنا أعرف ما تريده .

ورمت إلى هناء عينين ملتمعتين :

- الشقة هي حياتي مع أبيك ..

وكورت قبضتها :

- هي وطني .

– ليتك تنصحينه بالابتعاد عن الجماعات الدينية .

رمقته بنظرة مستفهمة :

– مدا تقصد ؟

– ألا تعرفين الجماعات الدينية ؟!

وهي تحاول كتم مشاعرها :

– أعرف أن الصواب في أداء باسم فروض دينه .

قال كالمتنبه :

– إقامة باسم معك جاءت في وقتها .

واصطنع ابتسامة متوددة

– شقتنا ـ كما تعرفين ـ حجرتان وصالة ، يا دوب تكفي رجلاً أعزب !

ووشى صوته بمرارة :

– حتى ملفات الأوراق المهمة أراجعها في القهوة بدلاً من البيت . عملي في البيت كله أوراق !

ضايقه بطء استجابتها . لجأ إلى الكناية والتورية ، والكلمات التي تعني ما يريده . لكن ملامح وجهها ظلت بلا صدى . غاب الانفعال ، ونظرات التصديق ، أو التكذيب .

تابعت ـ بتمازج الحيرة والضيق ـ تقليبه في كل ما يصادفه . حتى الزهور المجففة في ركن الصالة ، رأته يرفعها من الفازة الخزفية ، ويمد أصابعه يتحسس داخلها .

اتجهت نظراته ناحية البحر :

– يضيف إلى قيمة الشقة أنها غير مجروحة .

ومد ذراعه في أداء مسرحي

وأنتظره ، نسيت ما قد يمثله رحيلي في حياتك . وقال : لو أنني فطنت إلى الحيرة التي ستعانيها بعد موتي ، ما حرصت على بقائك في البيت . وقال : لم يعد الحدس يكفي للتفرقة بين حَسَني النية وسيئي السلوك . وقال : عرفت أن الملامح المسالمة ، الطاهرة ، قد تخفي نفساً تواقة إلى الشر . وقال : لم أدرك - إلا بعد النهاية - أن الحياة بكل هذا التعقيد . وقال : كم هو مؤسف أن يتعلم المرء بعد أن ينتهي كل شيء . وقال : حتى الخوف نستطيع - باقتحامه - أن نتغلب عليه . علت شفتيه ابتسامة : من حقك أن تمضي إلى البحر الذي تحبينه دون توتر أو قلق .

نصحها بأن تتردد على مقامات الأولياء ، لا تكتفي بمقام على تمراز ، بحري حي الأولياء والجوامع والزوايا والصوفية والموالد و لأذكار والأدعية والابتهالات والأهازيج والتواشيح والتقرب إلى الله .

هزت رأسها بالحيرة .

عرف ما تعانيه . قال :

- طول عمري أتردد على المساجد للصلاة وحدها

أربف لاتساع عينيها بالدهشة :

- إذا وجدت في زيارة مقامات الأولياء راحة ، فلا بأس

واحتضنها بنظرة مشفقة :

- لا بأس من أن تصحبك فاطمة ، تعرف الأماكن جيداً .

تكلم عن مد مسافة المشوار من ميدان المساجد إلى حلقة السمك ، ثلاثمائة متر أو أقل ، يؤنسها عجائز يرفون الغزل في انحناءة مرسى المراكب . الصباح الباكر أنسب المواعيد للاختيار والشراء ، تشترى أنواع السمك التي تحبها ، وتجيد شيها ، وقليها ، وإدخالها الفرن في صينية بطاطس .

ربطت بين ما تراه والكوابيس التي تلاحقها أرجعته - في اللحظة التالية - إلى ثبت صورة رامي في ذاكرتها .

لم تشعر - منذ رحيل محرم - بهذا القدر من الخوف ، خوف لا تدري مصدره ، وإن بدت سحنة رامي - في بالها - شديدة الوضوح

جلس إلى المائدة الخالية من الأوراق والكتب والأقلام وكوب الشاي بالحليب ، فركت عينيها ، ثم أعادت التحديق هو هو محرم بالروب المسدل على البيجامة ، والطاقية فوق الرأس ، والخُف المغربي ، والملامح الهادئة ، يجتذب نظراته من النافذة المطلة على البحر ، إلى حيث تقف على باب حجرة النوم .

أشار ناحية الكرسي المقابل .

جلست في صمت ، كأنه قد أخضعها لإرادته .

فطنت إلى أنها يجب أن تبدي الخوف تشهق ، تصرخ ، تختفي من أمامه على أي نحو ، لكنها جلست دون أن يتحشرج صوتها بمجرد الدهشة، كأنه يقاسمها الحياة في الشقة كما في الأيام البعيدة .

كمْ أربعون يوماً مضت منذ أطفأت نور الشقة في أربعين وفاته ؟!

قال لها إن كل شيء يجب أن يظل كما كان ، لا صلة لرحيله بتغيّر حياتها . وقال أعرف ما تعانين ، لاحظت تبدل رامي عما أظهر لي في البداية ، لم أتصور أنه سيبلغ هذا الحد . وقال : لا تلومي هناء ، نحن لم نعلمها كيف تدافع عن نفسها وقال كان الموت يشغلني ،

عانت الفقد والوحدة ، وعرفت الفرجة والتأمل والصداقة والدهشة والسؤال والفصال وقضاء الأوقات بالوسيلة التي تختارها ، والسير - بمفردها - في الشوارع المزدحمة ، وزوال الخشية على محرم من التوقعات القاسية .

تصورت أن موت محرم يعني موتها هي ، ترحل برحيله ، لكن الحياة أخذتها ، ولم تعد الأسئلة تناوشها .

قال لها محرم - قبل رحيله - مداعباً عندما أذهب لا تتأخري في اللحاق بي .

لكنها تأخرت حتى النسيان .

بدا كل شيء بعيداً ، كأنه لم يحدث .

رنا إليها بعينين مشفقتين

ـ مادام يتاح لي زيارتك ، اعتمدي على نصائحي

ثم وهو يتهيأ للقيام :

أعرف أنك قد لا تستطيعين زيارتي في مقابر المنارة .

وأومأ برأسه :

سأحرص على زيارتك بين وقت وآخر .

انبثق السؤال ـ في داخلها ـ كالمفاجأة : من يعني بموتها ؟

كان صوتها قد ارتجف بالتصعب

- تمنيت أن يدفن في دمنهور .

قال رامي في لهجة مستغربة

- اشترى مقبرة في الإسكندرية ليدفن فيها .

تمنت أن تسبق محرم في الرحيل ، لا تطمئن إلى خضوع هناء لسيطرة رامي ، لا تثق أنها تفعل ما يجب فعله ، حتى تدفعها إلى حوار محرم .

أوصت فاطمة ، اشترت لها من مكتبة بسعد زغلول ، خريطة لشوارع الإسكندرية . ثبتتها على جدار المطبخ

جرت بالقلم على امتداد طريق الكورنيش حتى انحناءة الطريق إلى ميدان المساجد ، وإلى حيث كان يصحبها محرم حوار الشاطئ إلى الحلقة ، وورش المراكب ، حتى سراي رأس التين .

حطت على الشوارع المفضية إلى شارع الميدان وسوق راتب . استعادت ـ في تأملها لحديقة المنشية ـ ما جرى في الليلة القاسية .

لم يعد اتصالها بالعالم الخارجي ما ترويه فاطمة عن ذلك العالم . نزلت إليه ، شاهدته ، تعرفت إلى قسماته وملامحه .

ظل رامي صامتاً . لم يكن محرم يأتن بتخطى الحاجز غير المرئى الذى وضعه بينهما . لا يتطرق - فى أحاديثهما - إلى ظروفه الشخصية ، ولا يميل إلى عبارات المباسطة أو الدعابة أو التلميح ، ويحرص على اختيار كلماته درءاً للمعاني المغايرة .

خمن رامي أنها لم تلتقط رسالته ، وأنها أفقدته اتجاه الحديث بالكيفية التى أعدها . لكى يخفف من وقع ما ينوى قوله ، استعاد ابتسامته المتوددة

- نحن أهلك .. لماذا لا نسكن هنا ، وتأخذين شقتنا ؟

هل ضاقت به الدنيا ، فيحاول إبعادها عن البيت الذى لا تتصور نفسها بعيدة عنه ؟

تمازجت لهجتها المتسائلة بالغضب

- لماذا أشترى أو أبيع ؟ أنا أسكن شقة رخيصة !

- أنت لا تحتاجين إلا إلى مساحة الكرسي خلف النافذة ، لتطلى إلى البحر .

تدرك أن هناء تخالفه فى نفسها ، تعجز عن مناقشته ، أو مخالفته ، فتصمت .

قالت نجاة

- هل أترك الشقة التى تؤوينى ؟

قال رامي

مجرد انتقال من شقة واسعة إلى شقة أضيق قليلاً .

قالت

ماذا يجرى للسمك لو أنه يخرج من الماء ؟

وزوت ما بين حيبيها :

ماذا يعني بتلميحاته ؟

هي لا تبرئه من هدف لهذه الزيارات . تقاربت بما يريب ، يقتصر الكلام على الشقة الضيقة ، والغلاء ، والإيماءات التي تستفز الفهم ، يتكلم ، ويتكلم، وهماء ساكنة كأنها تعرف ما يريد أن يقوله . تهمل نظراتهما المتواطئة ، مع همسات تعرف أنها تقصدها .

يضايقها تحركه في الشقة ، البحث في الثلاجة عما يأكله ، إعداد طعام في المطبخ ، إغلاق التليفزيون بحجة سخف برامجه ، التقليب في المكتبة ، أي شيء ، كل شيء ، يوصل إليها الإحساس بأنه في بيته . كل ما في البيت حق له ، هو مسكون بالفضول والجرأة والميل إلى الاقتحام .

قال رامي في لهجة متواطئة

- أنت سيدة وحيدة ، ونحن ثلاثة أشخاص .

ظلت على صمتها وملامحها الساكنة . خشيت أن تقول ما تؤاخذ عليه ، ما يلتقطه رامي ، يحذف منه ، ويضيف إليه ، يفاجئها بما لم تقله ، ولا دار في بالها .

قال رامي :

- تمنيت لو أن الأحباب ظلوا في مصر .. كنت سألجأ إلى تعاونهم في أعمال كثيرة .

رفع محرم رأسه من بين الأوراق

- ما أعرفه أن الانفتاح أعاد كل شيء إلى ما قبل البداية !

ووشى صوته بسخرية

- تحققت الفوائد للأجانب ، والشطار من المصريين !

ثم عاد إلى ما يقرأه :

فوتت الملاحظة :

- أمضيت الليل في حديقة المشية .

اكتفت هناء بتخلل شعرها بأصابعها ، وظلت صامتة .

مجرد السير من بيت هناء إلى الحديقة أخافها ، الظلمة والصمت والوحشة ، والنظرات المتسللة والمقتحمة ، وإحساس المهانة الذي أربك خطواتها .

كان مفتاح الشقة فى حقيبتها . لم تكن تعرف موضع البيت ، ولا كيف كنت تتصرف ، استعادت - كالحلم - رقم تليفون فاطمة .

انتفضت واقفة ضغطت على الكلمات

- زوجك يصر على أن يعاملنى كعجوز مخرفة !

قال لها الطبيب - فى آخر زياراتها له - ابتعدى عن المضايقات النفسية .

هل كان يعلن نصيحته لو أنه عرف ما يفعله رامى فى حياتها ؟!

تقلصت ملامحها بالغضب

- كنت قد حمدت الله أنى لن أراه ثانية !

أشارت هناء بأصابعها المضمومة إلى نفسها

- لا تريدين رؤيتى إذن ؟!

- أنت تتكلمين على هواه ، ولا تفعين إلا ما يأمرك به !

وشوحت بيدها ناحية الباب :

- اخرجا من حياتى !

هز فى جلسته

- تكلمين ابنتك !

– يموت .. أليس ذلك ؟

وربتت صدرها

– هكذا أنا .. أموت لو طال ابتعادى عن هذه الشقة .

ثم وهى تحيط المكان بامتداد ساعديها

– أستطيع ـ مغمضة العينين ـ أن أتنقل بين الأثاث ، دون أن أحرك قطعة واحدة من موضعها .

انتبهت إلى ما دفعها للتلفت ، التقطت عيناها تنقل وقفت محرم بين الطرقة وحجرة المكتب وباب حجرة النوم .

علا صوتها فى تأكيد :

– هذه الشقة هى كل عمرى .. لماذا أتركها ؟

– من أجلنا .. من أجل باسم .

عمّق من استيائها لهجة عابثة تتخلل صوته

– باسم يقيم معى .

رمقته بنظرة استياء ، كمن تبلغه أن كلماته لن تثيرها ، لن تدفعها إلى رد فعل من أى نوع .

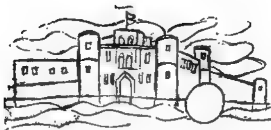
هل تبلغه أنها لا تعيش بمفردها ، وأن الشعور بالوحدة غيبته زيارات محرم التى تسأل ، وتناقش ، وتبدى الرأى ، وتشغل الوقت بالمؤانسة ؟

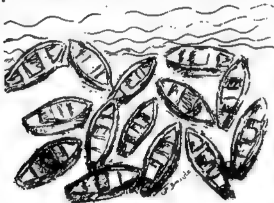
تجهت لهناء بنظرتها المستاءة :

– أنت لم تسأليننى أين ذهبت بعد أن طردتنى ؟

قالت هناء

– أنت تركت الشقة .





تحول نزوعها لتضخم عنويه ، وشعورها بالضيق من كلماته وتصرفاته ، إلى كره يصعب أن تخفيه ، هو سيئ من ألفه إلى يائه ، أميل إلى التآمر والدس ، ويخلو من المشاعر الإنسانية .

رمته بنظرة مشتعلة

- هناء مجرد ببغاء يردد ما يسمعه !

أومأ رامي لباسم .

ربتت نجاة صدره وهي تهم بإغلاق الباب :

- تمنيت أن تكون آخر من تراه عيني في الدنيا !

صعدت الدرجات الرخامية . مضت - بإشارة من يد الرجل الذي ورب - باليد الأخرى - باباً زجاجياً من صلعتي - إلى حجرة على اليمين

لم تقدم نفسها بصفة ما . اكتفت بذكر اسمها الأول «نجاة» مسبوقاً بكلمة مدام . زال ارتباكها حين أهملت مديرة الدار سؤالها في أي شيء . خمنت أنها ليست الزائرة الوحيدة للدار دون سبب .

المديرة في نحو الخامسة والأربعين . أبرز ما يميزها عينان كحيلتان ، واسعتان ، وأسنان فلجاء ، وبشرة سمراء صافية ، غطت شعرها بحجاب ، عقدته من الجانب بدبوس ذهبي . تتدلى من عنقها سلسلة ذهبية ، تنتهي بمصحف ذهبي صغير .

تحدثت المديرة عن الحجرات المشمسة ، جيدة التهوية ، والحديقة الواسعة ، والنوافذ المطلة على البحر ، والرعاية الطبية والإنسانية . ولونت صوتها

- إنهم يسعدون بزيارات الأصدقاء .

جست «نجاة» في الشرفة المطلة على البحر ، سألت ، وناقشت ، واستفسرت عما لم تعرفه .

أزعجها قول سيدة غطت البقع البنية وجهها ويديها

- يزورنا الكثير من الناس ..

ورفعت كتفيها ، ولوت شفتها السفلى

- ليسوا كلهم أهلنا ..

وخالط صوتها حزن :

- أشعر أنهم قدموا للفرجة علينا كما يتفرجون على حديقة الحيوان .

أضافت في حزنها .

زارت - بصحبة فاطمة - داراً للمسنين .

رفضت فاطمة في البداية ، تحدثت عن الأسرة والعيب والتقاليد .

ربتت كتفها

- لن أتصرف بدون موافقتك .

قالت فاطمة

لكنك أصغر من أن تقيمي في دار المسنين .

تمازج في عينيها الألم والحيرة

- إنهم يريدون الشقة .

ضربت فاطمة صدرها براحتها :

- تقتلين نفسك من أجلهم ؟!

وهي تغمض عينيها :

- إذا لم أحقق لهم ما يطلبون ، فأنا أكرههم !

وتهدّج صوتها باليأس

- ليأخذوها !

احتـدتهـا الموقع المطل - من شـارع جـانبى - على شـاطئ مـيـامى ، لبحر الذى تحبه .

دخلت من الباب الحديدى الضخم ، واتجهت إلى المبنى - ذى الطابقين - في المواجهة ، عبر طرقة من الفسيفساء ، على جانبيها أعمدة إنارة وأحواض زهور وأشجار قصيرة ، متباعده

والأعمام والأخوال ، والكثير من أهلها ومعارفها ـ حتى شقيقها الأصغر اكتفى في بلد الغربة البعيد ، برسائل تباعد وصولها ، ثم اقتصر على مكالمات تليفونية ، تهنئ بالمولد النبوي ، ورمضان ، والعيدين . تخشى ـ عند عودتها ـ ما لا تعرفه ، ما تغيب عنها صورته ، سيرهقها إحساس الفقد وسط الجماعة التي تعرفها ، أشد مما يرهقها داخل الشقة

- يؤلمني أن من ننتظرهم لا يأتون .

ثمة شيء تصاعد في داخلها ، لم تستطع إدراكه تماماً ، لا تعرف ماذا تريد ، ولا ماذا تفعل . اقتحمها شعور بغياب الأمان ، وتوقعت ما لم تتبين ملامحه .

قالت فطمة

- ست نجاة .. لماذا لا تتزوجين ؟

شهقت وهي تشير إلى نفسها :

- أنا ؟!

- لن تفعلي ما يغضب الله !

وهزت رأسها في تأكيد

- الزواج ثانية حق للأرملة والمطلقة .

شوحت بيدها

- أحتاج لمن يرعاني لا لمن أرعاه !

غمغمت، كأنها تكلم نفسها :

أن أحيا من أجل باسم .

لم تعد قادرة على التفكير في شيء محدد . اتصلت اللحظات ، لا تختلف - في رتابة أيامها - لحظة عن الأخرى .

ومض السؤال في ذهنها لماذا لا تعود إلى دمنهور ؟

هزت رأسها بالنفي .

منذ تركت دمنهور تباعدت زياراتها إلى المدينة في ما يقرب الأربعين عاماً ، تبدلت الأمور ، فيصعب استعادة الأوضاع القديمة رحل الأبوان

استطرد دون أن تغيب ابتسامته

- ويظل رامي على انشغاله بتشمم رائحة النقود داخل المبناء؟

وأخطأ في نطق الكلمات :

- لا أوافق أن تدخلي دار المسنين .

ورفع حاجبيه في استغراب :

هل نحكم على أنفسنا بالموت ، لكي نيسر حياة من يعيشون بالفعل ؟

نصحها أن تفطن إلى نفسها ، ولا تخضع للإيماءات المهددة . ذكّرها بأنه ترك لها ما يتيح لها العيشة الطيبة . إذا كان قد أخطأ لما تحمل العبء بمفرده ، فإن البداية الجديدة مسئوليتها مدة غيابه ، لابد أن تعي ما حولها ، وتحاذر ، وتجيد التصرف في مواجهة تصرفات الآخرين .

هي لأن يجب أن تعتمد على نفسها في كل شيء .

قال :

- قد تعوض الإرادة ضعف الجسد !

أعجب بنزولها إلى الطريق ، وذهابها إلى السوق ، وترددها على مقامات الأولياء ، والتمشي في الشوارع .

نصحها أن تختار المواعيد المناسبة للنزول إلى الطريق ، فلا يضايقها أحد .

كتمت رغبتها - لم تتبين السبب - في أن يصحبها إلى شاطئ البحر ، يغادران الشقة ، يهبطان السلم ، يعبران الطريق إلى المقعد الرخامي في الجانب المقابل ، ينظران ناحية البحر ، ويتبادلان الكلام .

كان يزايل موضعه ، يختفي ، في ما يشبه اختفاء الحلم الجميل ، تخلو نفسها مما يخيف أو يقلق ، تغمرها السكينة وهي تستعيد ما قاله ، تمر

اعتادت رؤيته - في الموضع نفسه - على فترات متقاربة ، لا يختار موعداً في ليل أو نهار ، وإن اقتصر حضوره على الأوقات التى تغيب فيه فاصمة ، كأنه يحرص على استعادة الأيام التى تبدلت برحيله .

وهو يبتسم

- هل تأذنين لى أن أعوض ما قصرّت في أدائه ؟

لم تعد تشعر في وجوده بالعزلة . تهمس بالقول أواجه مشكلة . يهز رأسه ، يستحثها على الكلام . تروى ما تعانيه ، يبدى الفهم ، أو يستوضح ، أو يسأل ، يعمق تعرفه إلى المشكلة ، يشير بالحل فور انتهاء روايتها . أو يشرد في التأمل قبل أن يعلن رأيه . حتى بعد أن يتركها ، يطل طيفه في مخيلتها ، تستعيد الكلمات ، وتعبيرات الوجه واليدين .

قال إن رحيله لا يعنى نهاية الدنيا . الناس ينامون ، ويستيقظون ، ويجلسون على المقاهى والحدائق وكورنيش البحر ، ويسيرون في الشوارع ، ويطلون من النوافذ والشرفات ، ويصيدون ، ويخوضون في المناقشات ، ويتحانقون ، وتعلو أصواتهم بالضحكات والنكات والشتائم ، ويتزاحمون على الأوتوبيس والترام ، ويركبون البحر ، ويستمعون إلى الراديو ، ويشاهدون التليفزيون ، ويترددون على المسارح ودور السينما ، ويلوذون بمقامات الأولياء ، ويحتفلون بالأعياد ، ويزورون المساجد ، ويتابعون صيد الحُرافه ، ويشجعون فرق الكرة ، ويحلمون .



الساعات وهي جالسة على الكرسي ، خلف النافذة ، لا تتأمل مشهداً محدداً. إنما هي تسلم الشرود إلى ما بعد الأفق .

سكتت عن رواية جلساتها إلى محرم ، تبوح لفاطمة بما يشغلها ، وما تطلب فيه النصيحة ، زيارات محرم سرها الخاص الذى يقتصر عليهما تلجأ إليه كلما واجهت مشكلة ، تسأله ، تناقشه ، يبدى الرأى

تنزل فاطمة إلى السوق ، أو لزيارة ابنتها ، يملأ وجود محرم الشقة ، يؤنس أوقات النهار ، يوجه ـ بملاحظاته ـ تفكيرها وتصرفاتها .

لم تعد الكوابيس ـ وحدها ـ تأتى فى النوم .

ثمة أطياف نورانية وتلاوات وتسابيح وابتهالات ، ورجال سبقتهم إلى أولياء الله ، أنست بهم فى أحلامها ، لا يعلق من الأحاديث المتبادلة بينها وبينهم ما تستعيده ، أو تتذكره ، لكن المعنى الذى تصحو عليه يملأها بالسكينة يدفعها ـ فى اليوم نفسه ـ إلى زيارة مقام على تمراز أو أبو العباس ، تطيل الوقفة أمام الأعمدة النحاسية ، تقرأ الفاتحة ، وتطلب البصقة و المدد .

توالى رنين الجرس . رافقته طرقات بقبضة اليد . اختلطت أصوات فى الخرج ، وتشابكت ، ميزت تلاحق الكلمات فى صوت هناء ، ولهجة رامى لأمرة ، وصياح حودة البواب يعلو بما لم تتبينه .

لا تتصور أن يشارك باسم فى أذاها .

ترامى القول .

– ابتعدوا !

أدركت أن هناء وزوجها ينويان تنفيذ ما لمحا به فى البداية ، ثم أكد المعنى فيما بعد ، يستعينان بآخرين لإملاء إرادتهما يحطمون الباب ، يواجهونه بما لا يدور فى بالها ، و لا تقوى على رده

تلفتت حولها .

بدا محرم واقفاً على مدخل الطرقة ، تطل من عينيه نظرة محرضة ، ومضة ، ثم اختفى .

قال فى آخر لقاءاتهما :

– لا تتراجعى ، افرضى إرادتك !

وملأت البسمة ملامحه .

– عشنا سنوات طويلة ، تصورت خلالها أنى أعرفك جيداً ، وأنى تزوجت أجمل امرأة فى الدنيا .

ولون صوته بنبرة متواطئة :

– عرفت الآن أن زوجتى ما يفوق كل معانى الجمال !

عاودت التلفت :

لا أحد ، ولا شيء ، سوى الهدوء الساكن فى داخل الشقة ، والأصوات المتشابكة فى الخارج .

عبه الارتباك ، عجزت عن تدبر الخطوة التالية هل تظل على صمتها ؟

لم تنتبه إلى الصرخات التى تطرق الباب إلا بعد أن تلاحقت ، وقويت . تعالى - بعدها - صوت جرس الباب .

متى تعود فاطمة من السوق ؟

حدست الزائر من ضغطة الجرس .

تأكدت من حدسها برؤية الطيفين الواقفين أمام الباب - وسط أطياف أخرى - ابنتها وزوجها .

هل يعيدان ما ألحا عليه فى زياراتهما السابقة ؟ .

لن تطمئن إلى استقرار حياتها ، مادام رامى يومئ بتلميحاته ، ويعد لما يصعب تخمينه ، أو تصوره .

رفضت مناقشة الأمر ، رفضت تبديل الشقة . ألفت الحياة فيها ، صارت جزءاً من حياتها . جاوز التلميح ، إلى المصارحة ، إلى الضغط والتهديد

- من حق هناء أن تقيم فى شقة أبيها .

تبينت - فيما يشبه المفاجأة - أنها تخوض - بمساندة محرم - معركة لا تنتهى . لم يعد يشغلها إلا أن تفوز فى معركتها . تظل فى البيت ، لا تتركه، مهما يحاصرها رامى بتهديداته

أحست وهى تغلق الباب وراءهما ، أنها تأخرت فى تنفيذ ما كانت قد استقرت عليه .

لحظة واحدة ، فلا تخطىء ، حتى المنبهات الصغيرة علت أجراسها الرفيعة والمرتفعة الرنين ، المتقطعة والمتواصلة . صنع تلاقي الأصوات وتنافرها ، ما دفعها إلى التحرك - بعفوية - في موضعها

هل هو محرم ؟

لحت الشابة مسدودة إلى ركن الصالة ، تنقلت نظراتها بين موضع الشبة ، والباب ، كأنها تقيس المسافة .

علا صوتها - من وراء الباب المغلق - بنبرة كالحشرجة

- من ؟!

هل تصرخ بالاستغاثة ؟ هل تلجأ إلى التليفون ؟

شعرت أن عليها أن تواجه ما لا سبيل إلى تجنبه .

كانت النظرة المحرضة هي آخر ما رأته في عينيه ، قبل أن يزايل المكان.

ترامى من البحر صخب غير مألوف في هذه الأيام . الصيف يجعل الأمواج حصيرة ، تهدأ الكائنات والأشياء . صيادو السنارة يلقونها من مواضعهم فوق الكورنيش الحجري والمكعبات الأسمنتية ، تصنع دوائر تتسع، تضيق ، تغيب تماماً ، ينتظرون جذبة التقاط الطُعم ، حتى الطيور تحلق في تراخ ، والأسماك تتقافز ، وتغطس إلى الأعماق القريبة ، الصافية ، والقوارب الصغيرة كأنها التصقت في مواضعها ، يعمق إلقاء الطراحة وسحبها من الصمت السادر .

تعالى هدير الأمواج ، وهبوب الريح ، واختلاط صياح الطيور ، وأصوات أخرى - لا تعرفها - تترامى من داخل البحر ، وتشابك صافرات السفن ، وتلاطم سعف النخيل على امتداد الطريق ، وتلاحق دوامات رملية ، ترافقها تكسّرات ، وارتطامات على الأرض ، وفي الجدران ، كأيام النوات .

أدركت من الدوى الهائل والرذاذ الذى اصطدم بزجاج النافذة ، أن الأمواج قذفت مكعبات الأسمنت إلى الطريق ، وانعكس وميض البرق داخل الصالة ، وعلا ما يشبه الرعد ، واندلقت الأمطار كالسيل .

توقعت - لا تدرى كيف - من الصخب المترامى عبر النافذة ، ما يعينها على المواجهة القاسية .

تنحت لاندفاع العاصفة في اتجاه الباب المغلق ، كومت وراءه ما لقيته من قطع الأثاث على جانبي الصالة ، وفي الطرقة ، والمشاية الصوفية الطويلة ، تصاعدت إلى قرب السقف ، صنعت باباً ثانياً ، أو جداراً .

أثار في نفسها ما لم تعهده من قبل - وبما لم تستطع تبينه - انطلاق دقات الساعات المتباينة النغمات ، الموزعة في الشقة ، كأنها ضبطت على

هــذه الروايــة

انطلاقا من مقولة طارق بن زياد المشهورة (وإن يكن بعض المؤرخين يشككون في صحة نسبتها إليه) وهو يحث جنوده على الصمود إذ ليس ثمة سوى البحر من أمامهم والعدو من خلفهم يستوحي محمد جبريل عنوان هذه الرواية الفاتنة التي ترصد - بدقة وصبر - تحولات جيلين أو أكثر وذلك من خلال وعي شخصيتها الرئيسية: نجاة التي فقدت زوجها - كان مستشارا في منظمة الصحة العالمية - ولكنها تعيش مع الذكرى في شقة مطلة على بحر الإسكندرية، وتلتحم أفكارها ومشاعرها بمن يحيطون بها: ابنتها هناء وزوجها رامي، وحفيدها باسم، وشغالتها - الآن صديقتها - فاطمة، وبوابها جودة، ولكن محرم زوجها يظل أكثر واقعية - في وجدانها - من كل هؤلاء.

هذه - على إيجازها - رواية أجيال يأخذ كل جيل منها برقاب سابقة ويمهد للاحقة، وكأنما هي أمواج البحر المتعاقبة التي تطل عليها نجاة من نافذة شقتها، وصنعة الروائي هنا محكمة رهيفة وكأنما ينسج قطعة من المخرم بأنامل صنّاع بارعة، ثمة قصد كامل في التعبير، دون زوائد أو فضول، وتوازن في رصد المشهد الخارجي والعالم الداخلي للشخوص، وحنان إنساني غامر يحيط به الروائي بطلته التي عرفت الوحدة بعد صحبة، والوحشة بعد أنس، ونذر الشيخوخة بعد فتاء.

البحر أمامها، حقا، ولكن وراءها ما يعين على الصمود، حب الزوج الذي يحوطها برعايته ونصحه حتى بعد رحيله، روح المقاومة التي ترفض الظلم، قوة الحق التي تقف في وجه زوج ابنتها الراغب في الاستيلاء على شقتها قط لن تسمح نجاة - انظر دلالة الاسم - بأن تعود طريدة شريدة تقضي ليلها في حديقة المنشية بعد أن أنشبت فيها ابنتها - كبنات الملك لير أو بنات الأب جوريو - أنياب العقوق، هكذا يرسي محمد جبريل - بلغة الفن - قيمة إنسانية كبرى تربط بين الذكرى والحاضر في وعي بطلته، وتعلي من معاني العدل والتراحم والوفاء، ولو كان ذلك بإبراز غيابها عن عالم قاس لا يرحم.

د. ماهر شفيق فريد

٥ أكتوبر ٢٠٠٩



رئيس مجلس الإدارة
عبد القادر شهيب

رئيس التحرير
عادل عبد الصمد

على ال



رئيس مجلس الإدارة
عبد القادر شهيب

رئيس التحرير
عادل عبد الصمد